عجائب القرآن

تأليف
الدكتور السيّد الجميلي

دار البحار


عجائب القرآن

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

تطلب منشوراتنا من
دار ومكتبة الهلال
بيروت - ص.ب ١٥/٥٠٠٣

دار البحار
بيروت - ص.ب ١٥/٥١٢١


بسم الله الرحمن الرحيم

أهـــداء

الى المعلم الفاضل والأخ الكريم الذي لم أره ولم أعرف عنه شيئاً منذ نيف وثلاثين عاماً لكنه غائب حاضر وثاوٍ مقيم في خاطريْ وفي كياني .

إلى الأستاذ نبيل متولي حلاوة المدرس بمدرسة بني عبيد دقهلية الإلزامية منذ أوائل الخمسينات تقريباً . أهدي هذه الدراسة .

السيد الجميلي

دعـــاء

اللهم إني أطعتـك في أحب الأشياء اليـك : شهـادة أن لا إلـه إلا أنت وحدك لا شريك لك ، ولم أعصـك في أبغض الأشياء إليـك وهي الشرك أعـوذ بـك منه وأستعـين بك عليـه وأستبرىء بـك على عـواديـه ، فـاغفـر لي مـا بـين ذلك .

اللهم متعني بالنظر إلى وجهك الكريم في دار كرامتك .

تقـديـم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . . . وبعد .

التوحيد هو جماع العقيدة الإسلامية ولب جوهرها وهو مجمل في قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له . والثابت أن التوحيد هو مفتاح دعوة الرسل أجمعين عليهم الصلاة والسلام فكانت رسالاتهم كلها من أجل إعلاء كلمة التوحيد وتوثيقها في الضمائر وتمكينها من القلوب . وقد قال سيدنا رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وستون شعبة[1] . أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ،والحياء شعبة من الإيمان »[2] .

قال تعالى : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾[3] . ومعنى ألزمهم أي أختار لهم وهو إلزام تكريم وتشريف ، وكلمة التقوى كما أجمع المفسرون هي قول (لا إله إلا الله) وهذا قول الجمهور .

والله سبحانه وتعالى يختار للمؤمنين ،فإذا ما أراد لهم شيئاً كان خيراً لهم ومتى اكتملت المقومات الإيمانية في فطرة المؤمن أو المؤمنة فإن كل ما يجري عليه من اختيار الله سبحانه وتعالى له والله لا يريد له إلا الخير ، قال تعالى

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الإيمان (١ / ٥١) . وفي رواية الإمام مسلم ورجال السنن (بضع وسبعون) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (٦٣/١) .

(٣) الفتح (٤٨/ ٢٦) . قال الترمذي هي شهادة ألا إله إلا الله-راجع سنن الترمذي بتحفة الأحوذي (٩ / ١٥٠) وطبقات السبكي الكبرى (٣٢/١) .

وهو أصدق القائلين :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾[1] .

ومعنى هذا أن المؤمن والمؤمنة ليس لهما اختيار أو رأي بل عليهما الانقياد والتسليم[2] .

يقول الإمام ابن كثير : « وهذه الآية عامة في جميع الأمور والأحوال ، وذلك أنه إذا حكم الله سبحانه وتعالى ، ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته فلا اختيار ولا رأي ولا قول »[3] .

وقد أخرج الشيخان عن أبي ذر قال : خرجت ليلة من الليالي فإذا برسول الله ﷺ يمشي وحده ، وليس معه إنسان ، فقلت إنه يكره أن يمشي معه أحد ، فجعلت أمشي في ظل القمر ، فالتفت فرآني فقال : « من هذا ؟ فقلت : أبو ذر جعلني الله فداك ، قال : يا أبا ذر ، تعاله ، فمشيت معه ساعة فقال : إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله خيراً ، فنفع فيه عن يمينه وشماله ، وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيراً ، قال فمشيت ساعة ثم قال لي : أجلس ههنا حتى أرجع اليك . . فانطلق في الحرة[4] ، فأطال اللبث ، ثم إني سمعته يقول وهو مقبل : وإن زنى وإن سرق ؟ فلما جاء لم أصبر فقلت : يا نبي الله جعلني الله فداك ، من تكلم في جانب الحرة ؟ ما سمعت أحداً يرجع اليك شيئاً ؟ قال : ذاك جبريل عرض لي في جانب الحرة ، فقال : بشر أمتك من مات لا يشرك بالله شيئاً[5] . دخل الجنة . فقلت يا جبريل وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم » . فقلت يا رسول

---

(١) الأحزاب (٣٣/٣٦) .

(٢) صفوة التفاسير (٢٢/١١٢٣).

(٣) مختصر ابن كثير (٣/٩٧) .

(٤) الحرة : الأرض ذات الحجارة السوداء .

(٥) ومعنى لا يشرك بالله شيئاً إنما يقصد بها الاستبراء من الشرك بكافة أنواعه وصوره حتى يكون التوحيد خالصاً لا تشوبه أية شائبة من ندب غير الله أو الاستعانة بغير الله .

الله : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « نعم وإن شرب الخمر ». وزاد الترمذي في روايته في المرة الرابعة : « على رغم أنف أبي ذر » .

كما أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ ، ومعنا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في نفرٍ ، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا ، فأبطأ علينا وخشينا أن يقتطع دوننا ، ففزعنا فقمنا ، فكنت أول من فزع ، فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ ، حتى أتيت حائطاً للأنصار ، لبني النجار ، فدرت هل أجد له باباً ، فإذا ربيع (جدول) يدخل في جوف الحائط من بئر خارجة ، فاحتفزت (تضاممت) فدخلت على رسول الله ﷺ فقال : « أبو هريرة ؟ فقلت : نعم يا رسول الله . قال : ما شأنك ؟ قلت : كنت بين أظهرنا فقمت فأبطأت علينا ، فخشينا أن تقتطع دوننا ، فكنت أول من فزع ، فأتيت هذا الحائط ، فأحتفزت كما يحتفز الثعلب فدخلت ، وهؤلاء الناس ورائي ، فقال : يا أبا هريرة - وأعطاني نعليه - اذهب بنعلي هاتين ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد ألا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة . فكان أول من لقيني عمر ، فقال : ما هاتان النعلان يا أبا هريرة ؟ قلت : هاتان نعلا رسول الله ﷺ بعثني بهما ، من لقيته يشهد ألا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشرته بالجنة . فضربني عمر بين ثديي فخررت لإستي ، فقال : ارجع يا أبا هريرة ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فأجهشت بالبكاء ، وركبني عمر فإذا هو على أثري ، فقال رسول الله ﷺ : مالك يا أبا هريرة ؟ فقلت : لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثتني به ، فضرب بين ثديي ، فخررت لأستي ، فقال رسول الله ﷺ : يا عمر .. ما حملك على ما فعلت ؟ قال : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشره بالجنة ؟ قال : نعم ، قال : لا تفعل ، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها ، فخلهم يعملون . فقال رسول الله ﷺ : فخلهم » .

وقد أخرج أبو يعلى وأحمد وابن حبان والبيهقي عن عثمان بن عفان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه إلا حرز على النار » . قال عمر بن الخطاب : « ألا أحدثك ما هي ؟ هي كلمة الإخلاص التي ألزمها الله تبارك وتعالى محمداً ﷺ وأصحابه ، وهي شهادة ألا إله إلا الله » .

***

قال تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾[1] . وقد فسر جماعة من أهل العلم السؤال عن قول (لا إله إلا الله) وقد قال عز من قائل : ﴿ وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾[2] . ومعنى الآية أن الملائكة تناديهم أن هذه هي الجنة التي أعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا .

ويقول الإمام القرطبي في جامعه : ورثتم منازلها بأعمالكم ودخولكم إياها برحمة الله وفضله[3] . يقول الحافظ بن حجر العسقلاني رحمه الله : فمن أقر ـ أي بشهادة لا إله إلا الله مطمئناً بها قلبه ـ أجريت عليه الأحكام في الدنيا ، ولم يحكم عليه بكفر إلا أن اقترف فعلاً يدل على كفره مثل سجود للصنم ، ولا يخرج عن هذه الدائرة بفعل المنهيات وترك الأوامر إلا بالشرك أو عمل عملاً يناقض تصديقه[4] .

قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[5] . فالشرك هو أخطر أعداء التوحيد وإفراد الحق سبحانه وتعالى

---

(١) الحجر (١٥/٩٢ ـ ٩٣)

(٢) الأعراف (٧/ ٤٣) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧ /٢٠٩) .

(٤) راجع فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١/٤٦) .

(٥) النساء (٤/ ١١٦) .

وحده بالعبودية .

وفعل المحرمات وترك المأمورات إنما يضعف الإيمان ويستوجب ويقتضي العقاب ولكنه لا يخرج صاحبه عن دائرة الإيمان كذلك روى الإمام مسلم في صحيحه : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة »[1] .

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله »[2] .

وذهب العلامة الكبير تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى (١ / ٣٩ - ٤١) (ط . الحلبي) إلى أن تفسير قوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾[3] . قال : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ **وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم** ﴾[4] . أي قولوا : لا إله إلا الله ،وهذا قول عكرمة .

وتزكية النفس البشرية لا يكون بأعظم من قول : لا إله إلا الله.قال تعالى : ﴿ **هل لك أن تزكي** ﴾[5] .

قال عكرمة : إلى أن تقول : لا إله إلا الله .

---

(١) راجع صحيح مسلم بروايات كثيرة (١/٥٥ ـ ٦٢) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه من كتاب الإيمان (١/٧٥) ومسلم في صحيحه أيضاً (١/ ٥٠) .

(٣) فصلت (٤١/ ٣٠) . وقيل استقاموا على طاعة الله فعلاً وقولاً ثم لم يروغوا روغان الثعالب . راجع تفسير القرطبي (١٥/ ٣٥٨) .

(٤) البقرة (٢/ ٥٨) ويقول الصابوني في صفوة التفاسير : أي قولوا ربنا حط عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا (١/ ٤٤) .

(٥) النازعات (٧٩ /١٨) . راجع تفسير هذه الآية في القرطبي (١٩/ ١٩٣) والكشاف (٤/ ٦٩٥) .

وقد روى الشيخان بسندهما ان رسـول الله ﷺ قال : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير »[١] .

* * *

وقـد ورد أن من يحضر الميت عليـه أن يلقنه الشهـادة لقولـه ﷺ : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » وقوله : « من كان آخـر كلامـه لا إله إلا الله عنـد الموت دخل الجنة يوماً من الدهر ، وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه »[٢] .

وقد ذكر ابن أبي الدنيا عن زيـد بن أسلم قال : قـال عثمان بن عفـان ، قـال رسول الله ﷺ : « إذا احتضـر الميت فلقنوه لا إلـه إلا الله ، فـإنـه مـا من عبد يختم له بها عند موته إلاكانت زاده إلى الجنة » .

وقال ﷺ : « احضروا مـوتاكم ولقنـوهم لا إله إلا الله وبشـروهم بالجنـة فـإن الحكيم من الرجـال يتحيز عنـد ذلك المصـرع وإن الشيطان أقـرب مايكون من ابن آدم عند ذلك المصرع »[٣] .

نسـأل الله الاستقامـة عـلى كلمـة التـوحيـد وأن يتقبـل منـا وأن يتـوفـانـا موحدين على البيضاء . إنه سميع مجيب الدعاء .

القاهرة في يوليو سنة ١٩٨٤ م .
ذي القعدة ١٤٠٤ هـ .

السيد الجميلي

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٧) ومسلم (١/ ١٨٢) .
(٢) صحيح مسلم وسنده صحيح .
(٣) وهـذا الحديث أورده القـرطبي في التذكـرة (١/ ٤٤ ، ٤٥) عن أبي نعيم من حـديث مكحـول عن اسماعيل بن عيـاش عن أبي معاذ عتبة بن حميد عن مكحـول عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ وذكره ثم قال : « غريب من حديث مكحول لم نكتبه إلا من حديث اسماعيل » أ هـ .

الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي

وهو الإمام محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التميمي البكري أبو المعالي أبو عبد الله المعروف بالفخر الرازي ، يقال له ابن خطيب الري أحد فقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار وله نحو مائتي مصنف وأهمها تفسيره القيم المسمى بالتفسير الكبير كما أن له أصول الفقه والمحصول وغيره من التصانيف الشائقة الممتعة .

وقد صنف الفخر الرازي ترجمة الإمام الشافعي في مجلد مفيد ، وقد ذكر ابن كثير في تاريخه المشهور أن الفخر الرازي كان له خمسون مملوكاً من الترك ، وكانت مجالس وعظه جامعة يحضرها ويختلف اليها الوزراء والعلماء والملوك والدهماء والعوام أيضاً[1] .

وكما هي العادة وقع بينه وبين الكرامية خصومات عنيفة بلغت حداً رهيباً وصل إلى تكفيره من قبلهم[2] . وقد رماه خصومه بالتهم الكثيرة التي لم تقم عليها حجة قوية فربما يكون ذلك حقداً عليه وسخيمة والله أعلم .

قال ابن كثير : « وبلغني أنه خلف من الذهب العين مائتي ألف دينار غير ما كان يملكه من الدواب والثياب والعقار والآلات ، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار ، وكان ابنه الأكبر قد تجند وخدم السلطان

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير (١٣/٥٥) بتصرف .

(٢) وذلك بأن رموه بالكبائر ، وقد قيل إن الكرامية وضعوا له سماً فمات فاغتبطوا بذلك اغتباطاً شديداً ، وقالوا انه ظنين بالمعاصي مع المماليك وغيرهم ، والله أعلم ، بحقيقة ذلك .

محمد بن تكش » . أ هـ .

وقال ابن الأثير في كتاب الكامل : « والرازي صاحب التصانيف المشهورة والفقه والأصول ، كان إمام الدنيا في عصره ، بلغني أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة » أ هـ .

وكانت وفاة الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ في ذي الحجة عام ٦٠٦ هـ . بعد أن خلف تراثاً ضخماً هائلاً ، ونحن لنا الظاهر وما عداه فأمره إلى الله ، رحم الله الإمام الفخر الرازي وجزاه عن الإسلام وعنا خيراً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

هذا الكتاب وعملنا فيه

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا من روائع الإمام الفخر الرازي رحمه الله وهو يتناول كلمة ﴿ لا إله إلا الله ﴾ وفوائد هذه الكلمة ، ثم يتناول أسماء كلمة التوحيد ، ثم هو يسرد لنا المباحث المختلفة المتعلقة بكلمة التوحيد وهي وجوه . ثم في فضل المؤمن والحكمة الفقهية في قول لا إله إلا الله . وقد قمنا بمقارنة الأصل بالنسخ المطبوعة ، وكذلك قمنا بتصحيح التصحيفات ، والتحريفات والأخطاء الإملائية وخرجنا الآيات والأحاديث النبوية الشريفة .

وقد حاولنا قدر الإمكان اختصار التعليقات حتى لا تطغى على الأصل الذي فيه تتجلى عبقرية الإمام الرازي في عرضه للمادة وتحليلها ومناقشتها .

نسأل الله السداد والتوفيق وحسن الختام .

الفصل الأول

في

اسرار كلمة لا إله إلا الله

قال الله سبحانه وتعالى لرسوله : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾[1] .

اعلم ان الله تعالى قدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ، والسبب فيه : أن معرفة التوحيد اشارة الى علم الأصول ، والاشتغال بالاستغفار اشارة الى علم الفروع ، والأصل يجب تقديمه على الفرع ، فإنه ما لم يعلم وجود الصانع امتنع القيام بطاعته وخدمته . وهذه الدقيقة معتبرة في آياتٍ كثيرة .

أولها : إن أبراهيم عليه السلام لما اشتغل بالدعاء قدم المعرفة على الطاعة فقال : ﴿ **رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين** ﴾[2] . فقوله : ﴿ **هب لي حكماً** ﴾ إشارة الى استكمال القوة النظرية بمعرفة حقائق الأشياء ، وقوله : ﴿ **وألحقني بالصالحين** ﴾ اشارة الى استكمال القوة العلمية[3] . بالاجتناب عن طرفي الافراط والتفريط . فقدم العلم على العمل .

وثانيها : أنه تعالى لما أوحى إلى موسى عليه السلام راعى هذا الترتيب فقال : ﴿ **وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إنني أنا الله لا إله إلا أنا فأعبدني وأقم الصلاة لذكري** ﴾[4] . فقوله : ﴿ **لا إله إلا أنا** ﴾ اشارة الى علم الأصول . وقوله : ﴿**فاعبدني** ﴾ اشارة الى علم الفروع .

---

(١) محمد (١٩/٤٧)

(٢) الشعراء (٨٣/٢٦) .

(٣) القوة العملية في (د) والسياق يناسب ما في (ج)

(٤) طه (١٣/٢٠ ، ١٤) .

وثالثها : أن عيسى عليه السلام لما أنطقه الله تعالى في وقت الطفولية قال : ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب ﴾[١] . فقوله : ﴿ إني عبد الله ﴾ إشارة الى علم الأصول[٢] . وقوله ﴿ آتاني الكتاب ﴾ أشارة الى علم الفروع ، فإن احتياجه[٣] . الى الكتاب إنما يكون في معرفة الأحكام والشرائع ، لا في معرفة ذات الله تعالى وصفاته .

ورابعها: الآية التي نحن فيها[٤] .

ولا نزاع في أن أفضل الأنبياء والرسل عليهم السلام هؤلاء الأربعة ، فلما ثبت أن الله تعالى قدم الأمر بمعرفة الأصول على معرفة الفروع في حق هؤلاء الأنبياء المكرمين ، ثبت أن الحق الصحيح الصريح ليس إلا ذلك . ومما يؤكد ذلك وجوه أخرى .

* * *

الوجه الأول

ان أكثر المفسرين اجمعوا على أن أول آيات أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ هي قوله : **﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[٥]** . وهذه الآيات مشتملة على دلائل التوحيد . وذلك لأن أظهر الدلائل الدالة على وجود الصانع الحكيم : تولد الإنسان من النطفة . ثم أنه تعالى نبه في هذه

---

(١) مريم (١٩/ ٣٠) . راجع التفسير الكبير (٢١/ ٢٠٨) .

(٢) ولا عبودية إلا بعد المعرفة الحقة للمعبود .

(٣) الاحتياج في (ج) وهو خطأ ، إذ أن احتياج المسيح الى الكتاب إنما يكون لمعرفة الأحكام على النقيض من احتياج العوام فإنهم إنما يحتاجون المعرفة الإلهية .

(٤) وحسب سياق الآيات الكريمة فهي خاصة برسولنا ﷺ .

العلق (٩٦ /١ ـ ٥) .

الآيـات عـلى لـطيفـة عجيبـة ، ولا يتـأتى شـرحهـا إلا في معـرض السؤال والجواب .

فإن قال قائل : لا بـد من رعايـة النظم بـين أجزاء الكـلام ، وههنا ذكـر أنـه تعالى يـولد الانسـان من النطفـة فقال : ﴿ **الـذي خلق . خلق الإنسان من علق** ﴾ . ثم ذكـر بعده أنـه ﴿**علم الإنسان مـا لم يعلم**﴾ . فـأي منـاسبـة بـين هذين الأمرين ؟ .

والجـواب : أن أخس مراتب الإنسـان وأدنـاهـا : العلقـة ، وذلـك لأنـه يستقـذرها كـل أحد . وأعـلى المراتب وأشـرفهـا : كـون الإنسـان عـالماً محيـطاً بحقائق الأشياء ، كأنه قال : عبدي ، تأمل إلى أول حـالك حـين كنت علقة ، وهي أخس الأشيـاء ، وإلى آخـر حـالـك حـين صـرت نـاطقـاً عـالماً بحقـائق الأشياء ، وهو أشـرف المراتب ، حتى يـظهر لـك أنه لا يمكن الانتقـال من تلك الحالة الخسيسـة الى هذه الـدرجة الـرفيعة الشـريفة إلا بتـدبير أقـدر القادرين ، وأحكم الحاكمين ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون[١] .

***

الوجه الثاني

أنـه تعالى مـدح المؤمنـين في سـورة البقـرة من أول السـورة الى قـولـه : ﴿ **وأولئـك هم المفلحون** ﴾[٢] . وذم الكـافرين في آيتـين : أولهما قـوله : ﴿ **إن الـذين كفروا** ﴾ إلى قـوله : ﴿ **ولهم عـذاب عـظيم** ﴾[٣] . ثم ذم المنـافقـين في

---

(١) ولا ينفصـل السلوك الإنساني عن العقيـدة الإلهية بحـال،ففي الآيـة إشـارة الى ان القـراءة الأولى خاصة بالوحـي المباشر من الله لرسولـه ﷺ ، أما الثـانية فخـاصة بـالعلوم الإنسانيـة والعقلية التي اهتدى اليها الإنسان .

(٢) البقرة (٢/١ ـ ٥) .

(٣) البقرة (٢/٦ ـ ٧)

ثلاث عشرة آية : أولها قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يا أيها الناس أعبدوا ربكم** ﴾[1] . ثم لما مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين كأنه قيل : هذا المدح والذم لا يستقيمان إلا بتقديم الدلائل على اثبات التوحيد والنبوة والمعاد فإن أصول الإسلام هي هذه الثلاثة . فلهذا السبب بين الله تعالى صحة هذه الأصول بالدلائل القاطعة .

فبدأ أولاً بإثبات الصانع وتوحيده ، وبين ذلك بخمسة أنواع من الدلائل : **أولها** : أنه استدل على التوحيد بأنفسهم ، واليه الإشارة بقوله : ﴿ **اعبدوا ربكم الذي خلقكم** ﴾[2] . **وثانيها** بأحوال آبائهم وأجدادهم ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ **والذين من قبلكم** ﴾[2]. **وثالثها** : بأحوال أهل الأرض ، وإليه الاشارة بقوله : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً** ﴾[2] **ورابعها** : بأحوال أهل السماء ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ **والسماء بناء** ﴾[2] **وخامسها** : بالأحوال الحادثة المتعلقة بالسماء والأرض ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ **وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾[2]. فإن السماء كالأب ، والأرض كالأم ، ينزل المطر[3] . من صلب السماء الى رحم الأرض ، فتتولد منها أنواع النبات ، ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾[2].

وذلك : أن هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ . وذلك : أن هذه الدلائل تدل على وجود الصانع من وجه ، وعلى كونه تعالى واحداً من وجه آخر ، فإنها من حيث أنها حدثت مع جواز ألا تحدث ، ومع جواز أن تحدث على خلاف ما حدثت به[4] . يدل على وجود الصانع القادر . ومن حيث أنها حدثت لا على وجه

---

(١) البقرة (٢/٨ - ٢١) .

(٢) البقرة (٢/ ٢١ ، ٢٢)

(٣) ينزل قطرة . على هامش (ج) من نسخة اخرى .

(٤) يريد القول بأن حدوثها ممكن لكنها ليست واجبة إذ انها متغيرة .

الخلل والفساد دلت على وحدة الصانع القادر[1] كما قال تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾[2] . فلهذا السبب ذكر بعد تلك الدلائل الخمسة ذينك المطلوبين : احدهما : إثبات الصانع . والثاني : اثبات كو نه واحداً ، لأن قوله تعالى : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً** ﴾[3] . يشتمل على اثبات الإله ، وعلى إثبات كونه واحداً .

ثم ههنا لطيفة أخرى مرعية في هذه الآية ، وهي : أن الترتيب الحسن المفيد في التعليم أن يقع الابتداء في التعليم من الأظهر فالأظهر ، مرتقياً إلى الأخفى فالأخفى . وهذه الدقيقة مرعية في هذه الآية . وذلك أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ **اعبدوا ربكم الذي خلقكم** ﴾ . فجعل استدلال كل عاقل بنفسه مقدماً على جميع الاستدلالات ، لأن اطلاع كل أحد على أحوال نفسه أتم من اطلاعه على أحوال غيره ، فسيجد بالضرورة من نفسه (أنه) تارة يكون مريضاً ، وتارة صحيحاً ، وتارة ملتذاً ، وتارة متألماً ، وتارة شاباً ، وتارة شيخاً ، والانتقال من بعض هذه الصفات الى غيرها ليس باختيار أحد من البشر .

وأيضاً فقد يجتهد في طلب كل شيء فلا يجد ، وكثيراً ما يكون غافلاً عنه فيحصل ، وعند ذلك يعلم كل أحد عند نقض العزائم وفسخ الهمم : أنه لا بد من مدبر يكون تدبيره فوق تدبير البشر . وربما اجتهد العاقل الذكي في الطلب فلا يجد ، والغر الغبي يتيسر له ذلك المطلوب . فعند هذه الاعتبارات يلوح له صدق قول الشافعي رضي الله عنه :

ومن الدليل على القضاء كونه　　　بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

---

(١) على اساس دقة الهندسة الإلهية في الخلق سبحانه وتعالى .

(٢) الأنبياء (٢١/٢٢)

(٣) البقرة (٢/ ٢٢)

ويظهر له أن هذه المطالب إنما تحصل وتتيسر بناء على قسمة قسام لا يمكن منازعته ولا مغالبته[1] . كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم ﴾[2] .

ثم أن هذه الاعتبارات غير محصورة ، فتارة كما في قوله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾[3] . وأخرى كما في قوله : ﴿ قل من يكلأكم بالليل والنهار ﴾[4] . . وبالجملة ، فلما كان اطلاع كل أحد على أحوال نفسه أشد من اطلاعه على أحوال غيره ، لا جرم قدم هذا الدليل على سائر الدلائل .

ثم هذه المراتب تتلوها مرتبة أخرى ، وهي علم كل أحد بأحوال آبائه وأجداده وأهل بلده . ثم هذه المرتبة الثانية تتلوها مرتبة ثالثة ، وهي معرفة الإنسان بأحوال الأرض التي هي مسكن الخلائق ، فإنها مختلفة الأجزاء ، كما قال تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾[5] . وقال أيضاً : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾[6] . ثم هذه المرتبة الثالثة تتلوها مرتبة رابعة ، وهي العلم بأحوال الأفلاك ، فإن بعضها يخالف البعض في العلو والسفل ، والصغر والكبر ، والبطء والسرعة ، واختلاف احوال الكواكب المذكورة فيها ، كما قال : ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾[7] . وقال : ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾[8] . وقال : ﴿رب المشرقين ورب المغربين ﴾[9] .

---

(١) وهذا فقد أثبت العقل البشري الإنساني بالحجج العلمية القطعية أن لا بد للخلق من خالق فلا يمكن استحداث الخلق من العدم ، وإن اختلفت التأويلات فإنها تجتمع في النهاية عند حظيرة التوحيد .

(٢) الزخرف (٣٢/٤٣) .

(٣) النمل (٦٢/٢٧) .

(٤) الأنبياء (٤٢/٢١) .

(٥) الرعد (٤/١٣)

(٦) فاطر (٢٧/٣٥)

(٧) الأنبياء (٣٣/٢١)

(٨) المزمل (٩/٧٣)

(٩) الرحمن (١٧/٥٥)

وقال : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾[1] . وقال : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾[2] . وقال : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾[3] . وقال في سورة نوح : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً ﴾[4] . وقال في سورة يس : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ﴾ [5] . وقال : ﴿ فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس ﴾[6] .

ثم بعد هذه المرتبة الرابعة مرتبة خامسة ، وهي الأحوال المنزلة من السماء الى الأرض ، وهي نزول المطر [7] . من صلب السماء ووقوعه في رحم الأرض ، ثم بعد ذلك يحدث في الأرض الواحدة أنواع من النبات ، بحيث يخالف كل واحد منها صاحبه في الشكل والطعم[8] والخاصية . فمنه ما يكون قوتاً ، ومنه ما يكون فاكهة ، ومنه ما يكون دواء ، ومنه ما يكون اداماً ، ومنه ما يكون سماً ، ومنه ما يكون علفاً لسائر الحيوانات . فذكر في تفصيل المطعومات قوله :﴿ إنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا . متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[9] . . وقال : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾[10]

---

(١) المعارج (٧٠/ ٤٠)
(٢) الأعراف (٧/ ٥٤)
(٣) الفرقان (٢٥/ ٦١)
(٤) نوح (٧١/ ١٥ ، ١٦)
(٥) يس (٣٦/ ٤٠)
(٦) التكوير (٨١/ ١٥، ١٦)
(٧) نزول القطر في [ج]
(٨) والطبع في (ج) وما جئنا به من نسخة أخرى .
(٩) عبس (٨٠/ ٢٥ - ٣٢)
(١٠) الأنعام (٦/ ٩٥)

بل إذا نظرت الى ورقة واحدة من أوراق الورد وجدت أن أحد وجهيها في غاية الحمرة ، والوجه الآخر في غاية الصفرة[1] ، مع انها تكون في غاية الرقة ، وقلة الثخانة ، ونحن نعلم بالضرورة ان نسبة تأثير الكواكب وحركات الأفلاك والطبائع إلى كل واحد من وجهي تلك الورقة الرقيقة جداً من الورد نسبة واحدة . فاختصاص أحد وجهي تلك الوردة بالحمرة ، والآخر بالصفرة لا بد وأن يكون لأجل القادر المختار الذي يفعله بالعلم والقدرة ، لا بالعلية والطبيعة .

وإذا عرفت ذلك ظهر لك أن الله تعالى في ترتيب هذه الدلائل الخمسة ، وتقديم بعضها على بعض حكمة بالغة ، وأسراراً مرعية ، فسبحان من لا نهاية لعلمه ، ولا غاية لحكمته .

ثم إن الله تعالى لما بين دلائل إثبات الصانع ووحدانيته أردف هذه المسألة بمسألة اقامة الدلالة على نبوة محمد ﷺ : **﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾**[2] . وذلك لأن المتحدى به وقع بكل القرآن في قوله : **﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾**[3]. فلما عجزوا عن معارضة كل القرآن أتبعه بالتحدي بعشر سور من القرآن فقال : **﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾**[4] فلما عجزوا عنه اتبعه بالتحدي بسورة واحدة قال : **﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾**[5] . فلما عجزوا أتبعه بالتحدي بآية فقال : **﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾**[6] . فلما عجزوا عنه مع توافر الدواعي ظهر كونه

---

(١) لعلها خضراء باهتة وليست في غاية الصفرة كما أورد المؤلف .

(٢) البقرة (٢/٢٣)

(٣) الإسراء (١٧ / ٨٨)

(٤) هود (١١/١٣)

(٥) البقرة (٢/٢٣)

(٦) الطور (٥٢/٣٤)

معجزاً باهراً ، وبرهاناً قاهراً[1] .

ثم أنه اتبع هذه المسألة بمسألة المعاد ، وهي قوله : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾[2] . كأنه قيل إنما قدمنا مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين ، ولو لم يكن معاد يجد المحسن ثمرة إحسانه ، ويجد المسيء عاقبة اساءته ، لم يكن ذلك لائقاً بحكمته . وهذا هو المراد من قوله : ﴿ **ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾[3] . وقال في سورة طه : ﴿ **وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى** ﴾[4] . وقال في ص : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾[5] .

فظهر بما ذكرنا : أنه تعالى لم يذكر في أول كتابه إلا دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، فثبت أنه لا بد من تقديم الأصول على الفروع ، فلهذا السبب قدم الأمر بالتوحيد على الأمر بالاستغفار ، فقال : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك** ﴾[6] .

* * *

الوجه الثالث في تقرير هذا الأصل

أنه تعالى قال في أول سورة النحل : ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فإتقون** ﴾[7] .

(١) وقرآناً قاهراً (هامش ج)

(٢) البقرة (٢/٢٥)

(٣) النجم (٥٣/٣١)

(٤) طه (٢٠/١٤ ، ١٥)

(٥) ص (٣٨/٢٨)

(٦) محمد (٤٧/١٩)

(٧) النحل (١٦/٢) .

فقـولـه : ﴿ لا إلـه إلا أنـا ﴾ إشـارة الى علم الأصـول . وقـولـه : ﴿ فاتقون ﴾ اشارة الى علم الفروع .

* * *

الوجه الرابع

إن مـوسى عليـه السـلام لما ادعى الـرسـالـة[1] عنـد فـرعـون قـال لـه فرعون : ﴿ وما رب العالمين ﴾[2] . . يعني : إن رسالتك متفرعـة على اثبـات أن للعالم إلهاً ، فـما الدليـل عليه ؟ ثم أن مـوسى عليه السـلام لم ينكر [عليـه] هذا السؤال ، بل اشتغل بذكر الدلائـل على وجـود الصانـع ، فقال : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾[3] ، فاستدل عـلى وجود الصـانع أولاً بـأحوال نفسـه ، وثانياً بأحوال آبـائه ، وهـو نظير قـوله في سـورة البقرة : ﴿ اعبـدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾[4] .

فظهر بما ذكرنا من الوجوه الفائدة في انه تعـالى ذكر أولاً قـوله : ﴿ فـاعلم أنـه لا إله إلا الله ﴾ . وذكـر ثانياً قولـه : ﴿ واستغفر لـذنبـك ﴾ . والله أعلم بحقائق كتابه . فهذا ما يتعلق بالدلائل القـرآنية الـدالة عـلى [وجوب] تقـديم علم الأصول على علم الفروع . ويؤكد هذا المعنى[5] . بعشر حجج أخرى :

الحجة الأولى : وهي أن شرف العلم بشرف المعلوم ، فمهما كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف ، ولمـا كان أشـرف المعلومات ذات البـاري تعالى وصفاته ، وجب أن يكون معرفته وتوحيده أشرف العلوم .

(١) ما كان يصح أن يقول المؤلف (ادعى الرسالة) بل يقول (اظهر الرسالة) فلعل هـذه كبوة من الناسخ .

(٢) الشعراء (٢٦/٢٣)

(٣) الشعراء (٢٦/٢٦)

(٤) البقرة (٢/ ٢١) .

(٤) والذي أوردناه من هامش (ج) من نسخة أخرى .

الحجة الثانية : أن العلم إما أن يكون دينياً ، أو يكون غير ديني ، ولا شك أن العلم الديني أشرف من غير الديني . وأما العلم الديني فأما أن يكون علم الأصول أو ما عداه . أما ما عدا علم الأصول فإن صحته متوقفة[١] على صحة علم الأصول ، لأن المفسر إنما يبحث عن معاني كلام الله تعالى ، وذلك فرع على معرفة الصانع المختار المتكلم . وأما المتحدث فإنما يبحث عن كلام رسول الله ﷺ ، وذلك فرع على إثبات نبوته[٢] . والفقيه يبحث عن أحكام الله تعالى ، وذلك فرع على ثبوت التوحيد والنبوة . فثبت أن هذه العلوم مفسرة لعلم الأصول . وظاهر ان علم الأصول غني عنها بأسرها[٣] ، فوجب أن يكون علم الأصول أشرف .

الحجة الثالثة : أن شرف الشيء قد يظهر بواسطة خساسة ضده ، فكلما كان ضده شيئاً أخس ، كان هو أشرف ، ولا شك أن ضد علم الأصول هو الكفر والبدعة ، وهما من أخس الأشياء ، فوجب أن يكون علم الأصول من أشرف العلوم .

الحجة الرابعة : أن شرف العلم تارة يكون لشرف موضوعه ،وتارة لشدة الحاجة اليه ، وتارة لقوة براهينه ودلائله ، وذلك : أن علم الهيئة أشرف من علم الطب ، مع أن الحاجة الى الطب أشد ، وعلم الحساب أشرف منهما ، من حيث أن موضوع علم الهيئة أشرف من موضوع علم الطب[٤] . وإن كان علم الطب أشرف من حيث أن براهين هذا العلم أقوى . وعلم الأصول مجتمع لهذه الخصال[٥] .

أما شرف هذا الموضوع فذلك لأن المبحوث عنه ذات الله تعالى

---

(١) (موقوفة) على هامش ج من نسخة أخرى .

(٢) ولا تتم النبوة إلا بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى قبل كل شيء .

(٣) العلم بالأصول غني عن النبوات والأحكام والثاني لا يستغني عن الأول .

(٤) يقصد المؤلف أن علم الهيئة أشرف من الهيئة والطب معاً

(٥) أن يجمع إليه شرف الموضوع وقوة الحجج .

وصفاته ، وقدرته وعظمته ، ولا شك في أنه أشرف ، وأما شدة الحاجة اليه فظاهر (وذلك)[1] . لأن الحاجة إما في الدين وإما في الدنيا .

أما في الدين فلأن من عرف هذه المطالب يستحق الثواب العظيم ، ويتخلص من العقاب الأليم ، ويصير من زمرة الملائكة المقربين ، في جوار رب العالمين ، ومن جهلها صار محروماً من الثواب العظيم ، مستوجباً للعقاب الأليم ، وصار من زمرة الأبالسة والشياطين ، وبقي في دركات الضلالة أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

وأما في الدنيا فلأن معظم مصالح العالم إنما تنتظم بسبب الرغبة في الثواب ، والرهبة من العقاب[2] ، وإلا لوقع الهرج والمرج في العالم .

وأما قوة براهين هذا العلم فلأن براهينه مركبة من المقدمات البديهية الضرورية ، وهي أقوى العلوم والمعارف . فثبت أن علم الأصول مستجمع خصال الشرف ، فوجب أن يكون أشرف العلوم .

الحجة الخامسة : أن هذا العلم لا يتطرق اليه النسخ والتغيير[3] . ولا يختلف باختلاف النواحي والأمم ، بخلاف سائر العلوم ، فوجب أن يكون أشرف العلوم .

الحجة السادسة : أن الإنسان لا يكون من أهل النجاة والدرجات إلا مع هذا العلم ، وقد يكون من أهل النجاة[4] ، وإن لم يعلم شيئاً من الفقه أصلاً البتة . أما أنه لا بد في النجاة من علم الأصول فلأن الجاهل بالله البتة لا يكون من أهل النجاة بالاجماع . وأما أنه قد تحصل النجاة بدون الفقه ، فلأن الإنسان قبل البلوغ لا يكون مكلفاً بشيء من الأعمال ، فإذا بلغ وقت

---

(١) ما بين الحاصرين على هامش (ج)

(٢) وكثير من الأمم الدارسة أبيدت بسب جهلها بأصول الدين وقد ورد ذكرها في القرآن في أكثر من موضع .

(٣) أي أنه ثابت والأخبار الثابتة لا تنسخ .

(٤) على هامش (ج) من نسخة أخرى ، وفي (د) المدرجات ، والسياق يطابق ما ورد في (ج) .

الضحوة الكبرى ففي هـذه الساعـة لم يجب عليه شيء من الصلوات والـزكوات والصيامات وسـائر العبـادات . فلو مات في هـذه الساعـة مع المعـرفة والتـوحيد لقي الله مؤمنـاً حقاً . ولـو قدرنـا أن هذا الـذي بلغ كان امـرأة ، ثم لما بلغت حـاضت ، وبقيت مـدة أخـرى في البلوغ ، وهي غـير مكلفـة لا بـالصـلاة ولا بـالصيام ولا بـالقـراءة[1] ، فـإذا انقضى زمـان حيضهـا ومـاتت فهي قـد لقيت حضرة الله تعالى مؤمنـة حقاً . فعلمنـا ان النجاة ، واستيجـاب الدرجـات ، لا يتوقف على الفقه ، وهو موقوف على علم الأصول .

الحجـة السابعـة : أن الآيات المشتملة عـلى دلائل علم الأصـول أشـرف من الآيـات المشتملة على دلائـل علم الفروع ، بـدليـل أنـه قـد جـاء في فضيلة **﴿ قـل هو الله أحـد ﴾**[2] . و**﴿ آمن الرسـول ﴾**[3] ، وآية الكـرسي ، و**﴿شهد الله ﴾**[4] . مـا لم يجيء في فضيلة قـولـه تعـالى : **﴿ ويسـألـونـك عـن المحيض ﴾**[5] ، **﴿وأحـل الله البيع ﴾**[6] ، **﴿ يـا أيهـا الـذين آمنـوا إذا تـداينتم بـدين ﴾**[7] الآية . ولـذلك فـأن الزهـاد والعباد يـواظبون في شـرائف الأوقات عـلى قـراءة هــذه الآيـات المشتملة عـلى الإلهيـات دون الآيــات المشتملة عـلى الأحكام .

الحجة الثامنة : أن الآيات الواردة في الأحكام الشـرعية أقـل من ستمائـة آية ، وأما اللواتي في بيان التوحيد والرد عـلى عبدة الأوثـان وأصناف المشـركين ، وفي اثبات النبوات والمعاد ، ومسألة القضاء والقدر فكثيرة .

وأمـا الآيـات الـواردة في القصص فـالمقصـود منهـا أمـا التـوحيـد ، وأمـا

---

(١) وهذه فترة الحيض

(٢) الإخلاص (١١٢ / ١)

(٣) البقرة (٢/٢٨٥ ، ٢٨٦)

(٤) آل عمران (٣/١٨)

(٥) البقرة (٢/٢٢٢)

(٦) البقرة (٢/٢٧٥)

(٧) البقرة (٢/٢٨٢)

النبوة . أما التوحيد فهو : الإستدلال على قدرة الله وعظمته وحكمته ، كما قال : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى** ﴾[1] . وأما على النبوة فمن وجهين :

الأول : بالفاظ مختلفة كما قال في سورة الشعراء بعد ذكر القصص : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾[2] . ووجه الإستدلال : أنه عليه السلام لما لم يتعلم علماً ، ولم يقرأ كتاباً ، ولم يتلمذ لأستاذ ، استحال منه رواية القصص إلا عن وحي الله وتنزيله .

والثاني : أنه يذكر القصة الواحدة مراراً مختلفة بألفاظ مختلفة ، وكل ذلك متشابهة في الفصاحة ، مع أن الفصيح إذا ذكر القصة الواحدة مرة واحدة بالألفاظ الفصيحة ، عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى بالألفاظ الفصيحة ، فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله لا من عند البشر . فدل [ذلك] على أن معظم القرآن في علم الأصول ، فلنشر الى معاني الدلائل[3] :

أما دلائل التوحيد فتارة بانخلاق الانسان من النطقة ، والله تعالى ذكر هذا الدليل أكثر من ثمانين مرة في القرآن . وتارة بدلائل الآفاق ، وهي أحوال الأرض والسماء والهواء والنبات ، وهي أظهر من أن تحتاج إلى الشرح .

وأما الدلائل الدالة على الصفات فنقول : أما الذي يدل على العلم فقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء** ﴾[4] . ثم أردفه بقوله : ﴿ **هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء** ﴾[5] . وهذا

---

(١) يوسف (١١١/١٢)

(٢) الشعراء (١٩٢/٢٦ - ١٩٤)

(٣) معاد الدلائل : في (ج)

(٤) آل عمران (٥/٣)

(٥) آل عمران (٦/٣)

دليل المتكلمين ، فإنهم يستدلون بأحكام الأفعال واتقانها على علم الفاعل ، وههنا استدل سبحانه بتصوير الصور في ظلمات الأرحام على كون الفاعل عالماً .

وقال أيضاً : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[1] . وهو غني عن تلك الدلالة . وقال : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾[2] . وهذا التنبيه للدلالة على كونه تعالى عالماً بكل المعلومات[3] ، لأنه تعالى يخبر عن المغيبات فتقع تلك الأشياء على وفق ذلك الخبر ، وذلك يدل على كونه عالماً بكل المغيبات .

وأما صفة القدرة فكل ما ذكر الله تعالى في القرآن ، من الثمرات المختلفة ، والحيوانات المختلفة ، مع استواء تأثير الطبائع والأفلاك ، فإنه يدل على صفة القدرة . وسيجيء الاستقصاء في هذه الدلائل القرآنية .

الحجة التاسعة : أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام أنهم كانوا طول عمرهم مشتغلين بهذه الدلائل ، ولنذكر ما ينبه على المقصود :

أما الملائكة عليهم السلام لما قالوا : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾[4] . فكان المراد من خلق هؤلاء [ليكونوا] سبب الشر والفتنة ، وذلك قبيح ، والحكيم لا يفعل القبيح[5] . فأجابهم الله تعالى بقوله : ﴿ **إني اعلم ما لا تعلمون** ﴾[6] . والمعنى والله أعلم : إني لما كنت عالماً بكل المعلومات ، كنت قد علمت في خلقهم وإيجادهم حكمة لا تعلموها أنتم . فلما سمعوا ذلك سكتوا .

---

(١) الملك (٦٧/ ١٤)

(٢) الأنعام (٦/ ٥٩)

(٣) وفي هذا أبلغ على القائلين أن الله يعلم الكليات فقط ولا يهتم بالجزئيات .

(٤) البقرة (٢/ ٣٠)

(٥) وهذا يدلنا على ان الملائكة مشغولون بدلائل التوحيد .

(٦) البقرة (٢/ ٣٠)

وأما مناظرة الله مع إبليس فالقرآن ناطق بها[1] .

وأمـا الأنبيـاء عليهم السـلام فـأولهم آدم عليـه السـلام ، وقـد أظهـر الله تعـالى الحجـة عـلى فضله بـأن أظهـر علمـه عـلى الملائكـة ، وذلـك محض الاستدلال[2] .

وأما نوح عليـه السلام فقـد حكى الله تعالى عن الكفـار انهم قالـوا ﴿ **يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جـدالنا** ﴾[3] . ومعلوم أن مجـادلة الـرسول مـع الكفار لا تكون في تفاصيل الأحكام الشـرعية ، فلم يبق إلا أنها في التـوحيد والنبـوة . وأيضاً فإنه عليه السلام لما أمرهم بالاستغفـار في قولـه : ﴿ **استغفروا ربكم أنـه كـان غفاراً** ﴾[4] . ففي الحـال ذكر مـا يدل عـلى التوحيـد فقـال : ﴿ **ألم تـروا كيف خلق الله سبع سموات طبـاقاً . وجعـل القمر فيهن نـوراً وجعل الشمس سراجاً** ﴾[5] .

وأمـا إبراهيم عليـه السلام فـالاستقصاء في شـرح أحوالـه يطول في هـذا الباب ، وله مقامات :

أولها : مع نفسه ، وهو قوله : ﴿ **فلما جن عليه الليل رأى كـوكباً ، قـال هذا ربي** ﴾[6] إلى آخر الآية . فهذه طريقة المتكلمين . فإنه استدل بـأفولهـا على حـدوثها ، ثم استـدل بحدوثهـا[7] على وجـود محـدثهـا ، كـما أخبـر الله تعـالى بقـولـه : ﴿ **يـا قـوم إني بـريء مما تشـركـون . إني وجهت وجهي للذي فـطر السمـوات والأرض حنيفـاً** ﴾[8] . ثم إن الله تعـالى عـظم شـأنـه بسبب ذلـك

---

(١) وهي تسفر عن طلاقة القدرة الإلهية وعدم تقيدها بالأسباب .

(٢) راجع كتابنا مواقف يوم القيامة .

(٣) هود (٣٢/١١)

(٤) نوح (١٠/٧١)

(٥) نوح (١٥/٧١ ، ١٦)

(٦) الأنعام (٧٦/٦)

(٧) بأفولها . على هامش (ج) من نسخة أخرى لا يقتضيها السياق .

(٨) الأنعام (٧٨/٦ ، ٧٩)

فقال : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ﴾[1] . وأيضاً ذكر في وقت دعائه ما هو محض الإستدلال ، وهو قوله : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين ﴾[2] . إلى آخر الآيات .

وثانيها : مناظرة ابراهيم مع أبيه ، وهي قوله : ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾[3] . إلى آخر الآيات .

وثالثها : حاله مع قومه ، تارة بالقول ، وأخرى بالفعل . أما القول فقوله : ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾[4] . وأما بالفعل فقوله تعالى : ﴿ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون ﴾[5] .

ورابعها : حاله مع ملك زمانه ، حيث قال : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾[6] إلى آخر الآية . فهذا كل مباحثة ابراهيم عليه السلام في معرفة المبدأ .

وأما بحثه في معرفة المعاد فهو كقوله : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾[7] . إلى آخر الآية .

واعلم أن موسى عليه السلام كان يقول في الإستدلال على [طريقة] دلائل ابراهيم . وذلك أنه حكى في سورة طه أن فرعون قال له ولهارون : ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾[8] . فرد بقوله : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء

---

(١) الأنعام (٨٣/٦)

(٢) الشعراء (٧٨/٢٦ ، ٧٩)

(٣) مريم (٤٢/١٩)

(٤) الأنبياء (٥٢/٢١)

(٥) الأنبياء (٥٨/٢١)

(٦) البقرة (٢٥٨/٢)

(٧) البقرة (٢٦٠/٢)

(٨) طه (٤٩/٢٠)

خلقه ثم هدى ﴾[1] . وهذا هو الدليل الذي ذكره ابراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ [2] . ثم حكى الله تعالى عن موسى في سورة الشعراء أنه قال لفرعون : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾[3] . وهذا هو الذي عول عليه ابراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾[4] . فلما لم يكتف فرعون بذلك ، وطالبه بدليل آخر ، قال موسى : ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾[5] وهذا هو الذي عول عليه ابراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب ﴾[6] .

وهذا ينبهك على أن التمسك بهذه الدلائل حرفة هؤلاء الأنبياء عليهم السلام . ثم أن موسى عليه السلام لما فرغ من تقرير دلائل التوحيد قال : ﴿ أو لو جئتك بشيء مبين ﴾[7] . وهذا يدل على أنه عليه السلام إنما فرع بيان النبوة على بيان التوحيد والمعرفة .

وأما سليمان عليه السلام فله مقامان : أحدهما في بيان إثبات التوحيد ، والآخر في إثبات النبوة .

أما المقام الأول في إثبات التوحيد فهو في قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾[8] . وهذه الآية دالة على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم . أما القدرة فقوله : ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ﴾ ،

---

(١) طه (٢٠/ ٥٠)
(٢) الشعراء (٢٦/ ٧٨)
(٣) الشعراء (٢٦ / ٢٦)
(٤) البقرة (٢/ ٢٥٨)
(٥) الشعراء (٢٦/ ٢٨)
(٦) البقرة (٢/ ٢٥٨)
(٧) الشعراء (٢٦/ ٣٠)
(٨) النمل (٢٧/ ٢٥)

وسمى الخبء بالمصدر[1] ، وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق ، وأخراجه من السماء بالغيث ، ومن الأرض بالنبات ، وتقريره ما قدمناه[2] . وأما العلم فيدل على ثبوته قوله : ﴿ **ويعلم ما تخفون وما تعلنون** ﴾ .

واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس ، وتخليص الدلالة على قانون الجدل على وجهين : الأول الإله . ويجب أن يكون قادراً على إخراج الخبء ، ويكون عالماً بالخفيات ، والشمس ليست كذلك ، فهي لا تكون إلهاً . أما أنه سبحانه يجب أن يكون قادراً عالماً على الوجه المذكور ، فكما أنه واجب الوجود لذاته ، فلا تختص قدرته وعلمه ببعض المقدورات وبعض المعلومات دون البعض . وأما أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناهٍ ، وكل ما كان متناهياً في الذات كان متناهياً في الصفات . وأذا كان الأمر كذلك امتنع أن تكون الشمس قادرة على إخراج الخبء وعالمة بالخفيات . وإذا لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار [فهي ليست إلهاً] فرجع حاصل هذا الدليل الى ما ذكره ابراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ **يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً** ﴾[3] .

الوجه الثاني : أن هذا اشارة الى دليل ابراهيم في قوله : ﴿ **ربي الذي يحيي ويميت** ﴾[4] . إلى آخر الآية . وبيانه : أنه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق الى المغرب بعد أفولها ، فهذا هو المراد باخراج الخبء في السموات والأرض[5] ، وهو المراد من قول ابراهيم عليه السلام : ﴿ **لا أحب الآفلين** ﴾[6] . ومن قوله : ﴿ **فإن الله يأتي بالشمس من المشرق**

---

(1) وفعله خبأ وأريد به المفعول أي يقصد المخبوء من الرزق .

(2) حيث ذكر المؤلف نزول المطر من صلب السماء إلى رحم الأرض . . . الخ .

(3) مريم (١٩/٤٢)

(4) البقرة (٢/٢٥٨)

(5) وهذا من كمال القدرة الإلهية وهيمنتها .

(6) الأنعام (٦/٧٦)

فأتِ بها من المغرب ﴾[1] . ومن قول موسى : ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾[2] .

وحاصل الكلام رجع إلى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر ، فكانت العبادة لقاهرها ومدبرها ، والمتصرف فيها أحق .

وأما إخراج الخبء من الأرض فالمراد منه : اخراج النطفة من بين الصلب والترائب ، وهو المراد من قول ابراهيم عليه السلام : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ .

ومن قول موسى عليه السلام : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾[3] .

فإن قيل : إن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلائل النفس على دلائل الأفلاك . فإن ابراهيم عليه السلام قال : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ . ثم قال : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ﴾ . وموسى عليه السلام قال : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ ثم قال ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ . ثم عكس سليمان هذا الترتيب ، فقدم دلائل السموات على دلائل النفس فقال : ﴿ الذي يخرج الخبءفي السموات والأرض ﴾[4] .

فاعلم أن موسى وابراهيم عليهما السلام كانت مناظرتهما مع من ادعى إلهية البشر . فإن نمرود وفرعون كل واحد منهما كان يدعي الإلهية ، فلا جرم ابتدأ ابراهيم وموسى بإبطال الإلهية للبشر ، ثم انتقلا الى ابطال الإلهية للأفلاك . وأما سليمان عليه السلام فإنه كانت مناظرته مع من يدعي إلهية الشمس ، فإن الهدهد قال : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾[5] . فلا جرم ابتدأ بذكر السموات ، ثم ذكر الأرضيات .

---

(١) البقرة (٢/٢٥٨)

(٢) الشعراء (٢٦/٢٨)

(٣) الشعراء (٢٦/٢٦)

(٤)النمل (٢٧/٢٥)

(٥) النمل (٢٧/٢٤)

ثم ان سليمان عليه السلام لما تمم دلائل التوحيد قال بعدها : ﴿ **لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾[1] . والمراد : أنه لما بين افتقار السموات والأرض وسائر الأفلاك الى مدبر خالق ، ذكر بعد ذلك أن كل ما كان جسماً فهو مخلوق ومربوب ، سواء كان عظيماً أو صغيراً ، فقال : ﴿ **لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾ . فهذا مقام سليمان عليه السلام في تقرير دلائل التوحيد .

أما المقام الثاني الذي [هو] في تقرير دلائل النبوة فهو قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ **يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإني عليه لقوي أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر** ﴾[2] .

واعلم أن كثيراً من الناس قالوا : ذلك الشخص الذي قال :﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ هو غير سليمان ، وظنوا أن الكاف في قوله : ﴿ **آتيك** ﴾ خطاب مع سليمان ، وعلى هذا التقدير لا بد وأن يكون القائل غير سليمان . . . إلا أن هذا ضعيف ، بل الصحيح عندنا : أن الآتي بذلك العرش هو سليمان . وذلك أنه عليه السلام قال : ﴿ **أيكم يأتيني بعرشها** ﴾ على سبيل التحدي . فقال العفريت : ﴿ **أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ . فقال سليمان عليه السلام للعفريت : ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك** ﴾ . فهذا الكلام قاله سليمان للعفريت تقريراً لتحديه الذي ذكره أولاً ، وكسراً للعفريت ، واظهاراً للمعجزة[3] .

والذي يدل عليه وجوه :

---

(١) النمل (٢٧/ ٢٦)

(٢) النمل (٢٧/ ٣٨ - ٤٠)

(٣) وهذا كله حدث بإرادة الله وبطلاقة القدرة الإلهية اللامحدودة والتي لا يحدها مكانٌ أو زمان .

الأول : أن سليمان عليه السلام ذكر دلائل التوحيد أولاً ، ثم افتقر بعد ذلك الى تقرير دلائل النبوة ، ومع بلقيس فإن سليمان قد كلفها الاقرار بالتوحيد والنبوة[1] ، فلما ذكر دلائل التوحيد وجب عليه أن يذكر بعد ذلك دلائل النبوة ، وهذا معجز دال على النبوة ، فوجب جعله معجزاً لسليمان عليه السلام حتى يتم الدليل .

الثاني : أن لفظة « الذي » موضوعة في اللغة للإشارة الى شخص معين عند محاولة تعريفها بقصة معلومة ، والشخص المعروف بأن عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾[2] . وقال : ﴿ **وورث سليمان داود** ﴾[3] . فوجب انصرافه اليه . وأقصى ما في الباب : أن آصف أيضاً كان عالماً بالكتاب ، إلا أن سليمان كان أعرف من آصف ، لأن الرسول أعرف بكلام الله من غيره ، فكان صرف اللفظ إلى سليمان أولى .

الثالث : إن احضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية ، فلو حصل لآصف دون سليمان لأقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان ، وانه غير جائز .

الرابع : ان سليمان لو افتقر في هذا الغرض الى آصف لأقتضى قصور

---

(١) وذلك بأن أقام عليها الحجة عندما بعث اليها كتابه ﴿ انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا عليَّ وآتوني مسلمين ﴾ [النمل -(٢٧/٣٠ ، ٣١)] وفي قوله (مسلمين) تسليم بالوحدانية لله تعالى وبالنبوة لسليمان . قال ابن عباس : أي موحدين ، وقال سفيان طائعين . راجع صفوة التفاسير للصابوني (١٩/ ١٠٠٤) بتصرف .

(٢) الأنبياء (٢١/٧٩) وتمام الآية دليل على علمهما ﴿ وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾ راجع تفسير القرطبي (١١/٣٢٠) ومختصر ابن كثير (٢/٥١٦)وصفوة التفاسير (١٧/٨٦٦) .

(٣) النمل (٢٧/١٦) ومعنى ميراث سليمان داوود أنه ورث علمه لقوله ﷺ « نحن الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » . وقيل ورث سليمان أباه في النبوة والعلم والملك دون سائر أولاده وقد قال الكلبي : كان لداود تسعة عشر ولداً فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه ، ولو كانت وراثة مال لكانوا جميعاً فيه سواء . راجع تفسير الإمام الطبري (١٩/٨٧)

سليمان في اعين الخلق .

الخامس : ان سليمان قال : ﴿ هذا من فضل ربي لِيَبْلُوَني أأشكر أم أكفر ﴾[1] . وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان[2] . فهذا ما يتعلق باشتغال سليمان عليه السلام بتقرير التوحيد والنبوة ، والله اعلم .

وأما عيسى عليه السلام ، فإنه أول ما تكلم شرح أمر التوحيد ، فقال : ﴿ إني عبد الله ﴾[3] . وشهادة حاله دالة على صدق مقالته ، وهذه الكلمة الواحدة كانت جامعة لكل المقاصد .

أما دلالتها على التوحيد فإن انطاق الطفل في زمان الطفولية لا يتأتى إلا من الإله القادر على كل المقدورات . وأما دلالتها على النبوة ففي دلالتها على براءة أمه من طعن اليهود ، فإنه لا يليق بحكمة الحكيم تخصيص ولد الزنا بهذه الرتبة العالية ، والدرجة الشريفة . . . ثم أنه عليه السلام بعد هذه الكلمة الوافية بتقرير كل الأغراض انتقل الى بيان الشرائع فقال : ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾[4] .

وأما محمد ﷺ فاعلم ان اشتغاله بتقرير دلائل التوحيد والنبوة والمعاد اظهر من أن يحتاج فيه إلى مزيد تقرير . وذلك أنه ﷺ كان مبتلياً بالرد على جميع فرق الكفار :

الأولى : الدهرية ، الذين كانوا يقولون : ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾[5] . والله تعالى أبطل قولهم ، فإنه خالق الدهر والزمان .

---

(١) النمل (٢٧ / ٤٠)

(٢) وهذا من قبيل الفتنة والإبتلاء ، وكان سليمان عليه السلام يعلم ذلك جيداً .

(٣) و (٤) مريم (١٩/ ٣٠) .

(٥) الجاثية (٤٥/ ٢٤) ومعنى الآية : أي وقال المشركون : لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا يموت بعضنا ويحيا بعضنا الآخر ، ولا بعث ولا آخره ولا نشور ، وهذا قول الدهرية الكفار ومشركي العرب الوثنيين ، الذين أنكروا المعاد والبعث . راجع مختصر ابن كثير (٣/ ٣١١) بتصرف .

والثانية : الـذين ينكـرون القـادرِ المختـار[1] ، والله تعـالى أبـطل قـولهم بحـدوث أنواع النبـات ، وأصناف الحيـوانـات ، مـع اشتـراك الكـل في تـأثـير الطبائع والأفلاك .

والثالثة : الذين أثبتـوا شريكـاً مع الله ، وذلـك الشريـك اما أن يكـون علوياً أو سفلياً .

أمـا الشريـك العلوي فمنهم من أثبت أن ذلك الشـريك هـو الكـوكب ، والشمس والقمـر ، والله تعالى أبـطله بدليـل الخليل ، وهـو قولـه : ﴿ **لا أحب الآفلين** ﴾[2] . ومنهم من قال : هو النور والظلمـة ، والله تعالى أبـطله بقولـه : ﴿ **الحمـد لله الذي خلق السمـوات والأرض وجعل الـظلمـات والنـور** ﴾[3] . ومنهم من قال : يزدان وأهرمن[4] ، والله تعالى أبـطله بقولـه : ﴿ **لو كـان فيهما آلهـة الا الله لفسـدتـا** ﴾[5] . وبقـولـه : ﴿ **إذن لابتـغـوا الى ذي العـرش سبيلاً** ﴾[6] . وبقوله : ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض** ﴾[7] .

وأمـا الشريـك السفلي فمنهم من قـال بإلهيـة المسيح ، والله تعـالى أبـطله بقوله : ﴿ **لن يستنكف المسيـح أن يكون عبـداً لله** ﴾[8] . ومنهم من قال : إنـه الوثن ، والله تعالى أبطله بقوله : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق** ﴾[9]

والرابعة : الذين طعنوا في أصـل النبوة ، وحكي الله تعـالى عنهم قولهم : ﴿ **أبعث الله بشـراً رسـولاً** ﴾[10] . ثم رد الله تعالى عليهم بقـولـه : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك** ﴾[11] .

---

(١) وهم القائلون بقوانين الصدفة والاحتمالات وهذا واضح بطلانه .

(٢) الأنعام (٦/٧٦)

(٣) الأنعام (٦/١)

(٤) وهما أله الخير وإله الشر عند الفرس .

(٥) الأنبياء (٢١/٢٢).

(٦) الإسراء (١٧/٤٢)

(٧) المؤمنون (٢٣/٩١)

(٨) النساء (٤/١٧٢)

(٩) النحل (١٦/١٧)

(١٠) الإسراء (١٧/٩٤)

(١١) الزخرف (٤٣/٣٢)

والخامسة : الذين طعنوا في التكليف ، تارة بأنه لا فائدة فيه ، والله تعالى رد عليهم بقوله : ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها** ﴾[1] . وتارة أخرى بأن الحق هو الجبر ، وهو لا ينافي صحة التكليف ، والله تعالى أجاب عنه بقوله : ﴿ **لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون** ﴾[2] .

والسادسة : الذين سلموا أصل النبوة ، وطعنوا في نبوة محمد ﷺ ، والقرآن مملوء من الرد عليهم .

ثم ان طعنهم كان من وجوه : تارة بالطعن في القرآن ، من حيث أنه مشتمل على ذكر خسائس الحيوانات ، من البعوضة والنملة والذبابة ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ **إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها** ﴾[3] . وتارة بأن القرآن سحر وشعر ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ **فأتوا بسورة من مثله** ﴾[4] . وتارة بالتماس سائر المعجزات كقوله تعالى : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً** ﴾[5] . فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ **هل كنت إلا بشراً رسولاً** ﴾[6] . وذلك أن الدليل لما تم لم يبق للاقتراح في الزيادات فائدة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **سبحان ربي هل كنت إلا بشراً** ﴾[6] . وتارة بأن هذا القرآن نزل نجماً نجماًبطريق التهمة ، فأجاب الله بقوله : ﴿ **كذلك لنثبت به فؤادك** ﴾[7] . وتارة بأنه يحتمل أن يكون هذا القرآن من القاء الجن والشياطين ، كما في سورة الشعراء ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم** ﴾[8] .

---

(١) الإسراء (١٧/٧)

(٢) الأنبياء (٢١/٢٣)

(٣) البقرة (٢/٢٦)

(٤)البقرة (٢/٢٣)

(٥) الإسراء (١٧/٢٩)

(٦) الإسراء (١٧/٩٣)

(٧) الفرقان (٢٥/٣٢)

(٨) الشعراء (٢٦/٢٢١ ، ٢٢٢)

والسابعة : الذين أنكروا الحشر والنشر ، والقرآن مملوء من الرد عليهم .

فثبت بما ذكرنا أن الاشتغال بدليل التوحيد والنبوة حرفة جميع الأنبياء عليهم السلام .

الحجة العاشرة على نهاية شرف هذا العلم : قوله تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[1] . وليس المراد منه المجادلة في فروع الشرائع ، لأن من أنكر نبوته فلا فائدة من الخوض معه في تفاريع الأحكام ، ومن أثبت نبوته فلا يخالفه . فعلمنا بهذا ان الجدال المأمور به في تقرير دلائل الأصول . فإذا ثبت هذا في حق الرسول ثبت في حق أُمته ، لقوله تعالى : ﴿ **وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾[2] . ولقوله : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾[3] . وقوله عليه السلام : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء من بعدي »[4] .

الحجة الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾[5] . وذلك يقتضي ان الجدال مع العلم لا يكون مذموماً . وأيضاً حكى الله تعالى عن قوم نوح انهم قالوا : ﴿ **يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾[6] . ومن المعلوم ان ذلك الجدال كان في تقرير دلائل الأصول ، وإذا ثبت بهذه الآيات أن الجدال في تقرير الدلائل مستحسن ، ثبت أن المراد من قوله تعالى : ﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلاً** ، بل

---

(١) النحل (١٦/١٢٥)

(٢) الأنعام (٦/١٥٣)

(٣) آل عمران (٣/١٣١)

(٤) أخرجه أبو داود ، وتمام الحديث : « عضوا عليها بالنواجذ لا يزيغ عنها ألا هالك ». وأهل السنة هم الفرقة الناجية .

(٥) الحج (٢٢/٨)

(٦) هود (١١/٣١)

هم قوم خصمون ﴾[1] . محمول على ذم الجدال في تقرير الباطل .

الحجة الثانية عشرة : انه تعالى أمر بالنظر : فقال : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾[2] . ﴿ أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ﴾[3] . ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾[4] . ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾[5] . ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾[6] .

الحجة الثالثة عشرة : انه تعالى ذكر التفكر في معرض المدح فقال : ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾[7] . ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾[8] . وأيضاً ذم المعرضين فقال : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾[9] . ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾[10].

الحجة الرابعة عشرة : انه تعالى ذم التقليد فقال حكاية عن الكفار : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[11]. وقال : ﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾[12]. ﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾[13].

---

(١) الزخرف (٥٨/٤٣)
(٢) النساء (٨٢/٤)
(٣) الغاشية (١٧/٨٨)
(٤) فصلت (٥٣/٤١)
(٥) الرعد (١٣/ ٤١)
(٦) الأعراف (١٨٥/٧)
(٧) الزمر (٢١/٣٩)
(٨) آل عمران (١٣/٣)
(٩) يوسف (١٠٥/١٢)
(١٠) الأعراف (١٧٩/٧)
(١١) الزخرف (٢٣/٤٣)
(١٢) البقرة (١٧٠/٢) .
(١٣) الشعراء (٢٦/ ٧٤)

وقال : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾[1] . قال في والد ابراهيم عليه السلام : ﴿ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا ﴾[2] . وكل ذلك يدل على وجوب النظر وفساد التقليد .

الحجة الخامسة عشرة : أنه تعالى حكى أنهم سألوا محمداً ﷺ عن أمور ، كقوله : ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾[3] . ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾[4] . فذكر في هذه المواضع كذا وكذا ، إلا في آية واحدة وهي أنهم سألوه عن مسألة أصولية ، وهي قوله : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾[5] . الآية . فههنا حرف التعقيب . يعني : يا محمد ، اذكر هذا الجواب في الحال ، لأن هذه المسألة أصولية ، ولا يجوز تأخير الجواب عنها ، لأن ذلك يقدح في الإيمان ، أما سائر المسائل فإنها فروعية ، فلا يكون تأخير الجواب عنها الى وقت الحاجة ضاراً .

فثبت بجميع هذه الدلائل وجوب تقديم الأصول على الفروع ، فلا جرم . قال الله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾[6] . فقدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ، والله أعلم .

* * *

(١) الفرقان (٤٢/٢٥)
(٢) مريم (٤٦/١٩)
(٣) البقرة (٢٢٢/٢)
(٤) الأنفال (١/٨)
(٥) طه (٢٠/ ١٠٥)
(٦) محمد (١٩/٤٧)

الفصل الثاني

في

فوائد كلمة لا إله إلا الله

الفائدة الأولى :

اعلم ان هذا الذكر لما كان من أفضل الأذكار فالعدو لما جاءته المحنة فزع اليه ، والولي لما جاءته المحنة فزع اليه .

أما العدو فإن فرعون لما قرب من الغرق قال : ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل** ﴾[1] . والمعنى : أنه لا إله يقدر أن يجعل النار راحة كما في حق ابراهيم ، ولا الماء عذاباً كما في حق فرعون[2] ، إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل .

وأما الولي فكما في حق يونس . قال الله تعالى : ﴿ **فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾[3] . والمعنى : لا إله إلا أنت ، فانك أنت الذي تقدر على حفظ الإنسان حياً في بطن الحوت ، ولا قدرة لغيرك على هذا الحال[4] .

فإن قيل : كل واحد منهما نادى ، فلماذا قبل نداء احدهما ولم يقبل نداء الآخر ؟

---

(١) يونس (١٠/ ٩٠) .

(٢) في حقه (في الأصلين)والذي أوردناه على هامش (ج) من نسخة اخرى .

(٣) الأنبياء (٢١/ ٨٧)

(٤) والنجاة من الكرب محققة بنص القرآن لقوله تعالى : ﴿ فأستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ [الأنبياء ـ(٢١/ ٨٨)] وقيل لذلك أن أعظم الدعاء ما ورد في القرآن الكريم وأعظم ما ورد في القرآن ما أعقبته الإجابة فتأمل .

قلنا : الفرق من وجوه :

الأول : أن يونس عليه السلام كان قد سبقت له المعرفة مع هذه الكلمة ، فسبق المعرفة اعانة على قبولها منه . وأما فرعون فقد تقدم له سبق الكفر ، وذلك لأن الذي تقدم له (هو) النداء الى نفسه كما قال تعالى : ﴿ **فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾[1] . وأما يونس عليه السلام فقد كان ينادي الله . قال تعالى : ﴿ **ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم**﴾[2] . وأيضاً قال : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾[3] . وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات ، يحفظه الله في الفلوات .

الثاني : أن يونس عليه السلام انما ذكر هذه الكلمة مع الحضور فقال : ﴿ **لا إله إلا أنت** ﴾ . فكان في الحضور والشهود . وأما فرعون فإنه قالها في الغيبة ، فقال : ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل** ﴾ . فأحال العلم بحقيقة هذه الكلمة على الغير[4] .

الثالث : أن فرعون ذكر هذه الكلمة على سبيل التقليد لبني اسرائيل ، فقال : ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل** ﴾[5] . وأما يونس عليه السلام فإنه إنما ذكرها على سبيل الاستدلال مع العجز والانكسار بسبب تلك الكلمات[6] . ثم قال بعده : ﴿ **سبحانك اني كنت من الظالمين** ﴾[7] .

---

(١) النازعات (٢٣/٧٩ ، ٢٤)

(٢) القلم (٤٨/٦٨)

(٣) الصافات (١٤٣/٣٧ ، ١٤٤)

(٤)والضمير الذي استعمله كل منهما يدل على حاله واستعمال يونس له دليل على اليقين وفرعون استعمله ليدل على فقدان اليقين .

(٥) يونس (٩٠/١٠)

(٦) الإنكسار للشعور بإثم التقصير .

(٧) الأنبياء (٨٧/٢١)

فحصل له العجز والانكسار بسبب الذلة ، فلما كانت هذه مسبوقة بالعجز والانكسار ملحوقة بهما لا جرم صارت مقبولة ، لقوله تعالى : ﴿ **أمّن يجيب المضطر إذا دعاه** ﴾[1] .

الرابع : أن فرعون إنما ذكر هذه الكلمة لا للعبودية ، بل لطلب الخلاص من الغرق ، بدليل قوله : ﴿ **حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت** ﴾[2] . وأما يونس عليه السلام فهو إنما قالها لما حصل له من الانكسار بسبب التقصير في الطاعة والعبودية ، بدليل قوله بعده : ﴿ **سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ .

* * *

الفضيلة الثانية لهذه الكلمة

أنه تعالى أمرك بطاعات كثيرة ، من الصلاة والصيام والحج ، ويستحيل أن يوافقك [الله] في شيء منها ، ثم أمرك أن تقول : لا إله إلا الله ، ثم إن الله يوافقك فيها فقال : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾[3] .

والمقصود من التكرير[4] وجهان : أن يكون العبد مواظباً على تكريرها طول عمره . الثاني : كأنه قال : عبدي ، جعلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها ، فاجعلها انت أيضاً أول عمرك وآخره ، حتى تفوز بالنجاة والسلامة .

وههنا نكت :

---

(١) النمل (٢٧/٦٢)

(٢) يونس (١٠/٩٠)

(٣) آل عمران (٣/١٨)

(٤) أي تكرير (لا إله إلا هو) في الآية نفسها .

الأولى : انه تعالى جعلك ثالث نفسه[1] في هذه الآية ، وكفاك هذا فخراً .

الثانية : روي أن يوسف عليه السلام أراد أن يتخذ وزيراً ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تتخذ فلاناً وزيراً لك ، فنظر اليه يوسف عليه السلام ، وكان[الرجل]في غاية الدناءة ، فسأل جبريل عن السبب ، فقال : إن له عليك حق الشهادة : انه هو الذي شهد ﴿ **إن كان قميصه قد من قبل** ﴾[2] الآية . والاشارة : ان من شهد لمخلوق وجد وزارته في الدنيا ، فمن شهد لله بالتوحيد والجلال كيف لا يجد معرفته ورحمته في العقبى ؟ .

والثالثة : في الحديث : « ان لله ملائكة يؤمنون عند تأمين الإمام ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه »[3] . والاشارة : ان من وافق تأمينه تأمين الملائكة مرة صار مغفوراً له ، فمن وافقت شهادته بوحدانية الله شهادة الله ألف مرة أولى أن يصير مغفوراً له .

الرابعة : انه سبحانه سماك وقت التخليق مختاراً ، فقال : ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار** ﴾[4] أي مختاراً له ، لا إنه أثبت الخيار للعبد ، وفي موضع الذنب [سماه] جاهلاً فقال : ﴿ **انه كان ظلوماً جهولاً** ﴾[5] . وفي موضع الرزق [سماه] دابة [فقال] : ﴿**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها** ﴾[6] . وفي وقت الطاعة [سماه] أجيراً : ﴿ **فيوفيهم أجورهم** ﴾[7] .

---

(١) والثلاثة هم الله سبحانه وتعالى ، والملائكة ، وأولوا العلم .

(٢) يوسف (١٢/٢٦) قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان طفلا في المهد أنطقه الله ، وكان ابن خالها . راجع الطبري (١٢/١٩٣) لكن صاحب البحر المحيط يقول : وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها وأنفى للتهمة . البحر (٥/٢٩٧) .

(٣) الحديث أخرجه الطبراني عن واثلة بن الأسقع وغيره .

(٤) القصص (٢٨/٦٨)

(٥) الأحزاب (٣٣/٧٢)

(٦) هود (١١/٦)   (٧) النساء (٤/١٧٣)

وعند الشهادة عالماً : ﴿ والملائكة وأولوا العلم ﴾[1] . ثم ان العلم أفضل الدرجات : ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾[2] .

والغرض منه : التنبيه على الدرجات ، فأنت من حيث أني خلقتك مختاري ، فلك درجة موسى حيث قلت : ﴿ وأنا اخترتك ﴾[3] . وحين اذنبت فأنت جاهل ، والجهل عذر من بعض الوجوه ، وحين تشتغل بطلب الرزق كالبهيمة ، لأنه هو الذي تكفل برزقك ، فما هو مقدور لك يصل اليك ، وما ليس مقدوراً لك لا يصل إليك ، فكان الطلب عديم الفائدة[4] ، فكان [هذا] شبيه أفعال البهائم ، وحين تشتغل بالعمل كنت كالأجير . وتلك كلها درجات نازلة ، أما حين تشتغل بالشهادة والتوحيد فأنت من العلماء الخائضين في لجة بحر التوحيد ، وبلغت الغاية القصوى في المنقبة والشرف ، كما قال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[5] .

الخامسة : قال الله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾[6] . وقعت هذه الاشارة على العصا وعلى اليد ، وأما العصا فقوله : ﴿ تلك ﴾ . وأما اليد فقوله : ﴿ بيمينك ﴾ . فصارت العصا من قوة هذه الكلمة تلقف حبال السحرة وعصيهم ، وصارت اليد يداً بيضاء ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾[7] . وكلمة لا إله إلا الله ، وهي صفة وحدانيته وفردانيته في ذاته وجلاله وعزته ، ألا تستقل بافناء آثار العصيان عن قلب العبد ، وإنارة روحه بنور المعرفة والهداية ؟

---

(١) آل عمران (٣/١٨)

(٢) النساء (٤/١١٣)

(٣) طه (٢٠/١٢)

(٤) لا بد أن يتوافق شغل القلب بالخالق مع نشاط الحركة في طلب الرزق .

(٥) المجادلة (٥٨/١١)

(٦) طه (٢٠/ ١٧)

(٧) النمل (٢٧/١٢)

السادسة : عصا موسى أخرجت من الجنة ، فبطل السحر عندها ، فهذه الكلمة انما ظهرت من شجرة العزة والربوبية والعظمة ، ونرجو أن تبطل الذنوب عندها .

السابعة : حكي عن الحجاج انه أمر بضرب عنق رجل ، فقال : لا تقتلني حتى تأخذ بيدي وتمشي معي . فأجابه اليه ، فقال الرجل : بحرمة صحبتي معك في هذه الساعة لا تقتلني . فعفا عنه ، فهنا وقعت للمؤمنين صحبة مع الله الكريم في هذه الشهادة ، فنرجو أن يغفر الله له .

الشامنة : وجد المؤمن بهذه الشهادة أبوة ابراهيم ، وهو قوله : ﴿ **ملة أبيكم ابراهيم** ﴾[1] . وأمومة أزواج النبي ﷺ ﴿ **وازواجه أمهاتهم** ﴾[2] . وأخوة المؤمنين ﴿ **إنما المؤمنون أخوة** ﴾[3] . واستغفار الأنبياء : ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾[4] . واستغفار الملائكة ﴿ **ويستغفرون للذين آمنوا** ﴾[5] . وشفاعة مثل محمد ﷺ « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »[6] . ومشاركة الله تعالى في الاسم ﴿ **المؤمن** ﴾ . فذنبه ما أزال عنه هذه التشريفات ، افترى انه يخرجه عن رحمة ارحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين .

التاسعة : يحكي انه عرض على نصر بن أحمد عسكره ، وكان يسأل عن اسماء الرجال فيجيبونه ، فسأل واحداً عن اسمه فسكت ، لأنه كان سميه ، ففطن لذلك ، فأعطاه خلعة ، فاذا كان حال سمي الملك ذلك ، فكيف من كان سمي ربه تعالى ﴿ **المؤمن** ﴾ .

* * *

(١) الحج (٢٢/ ٧٨)

(٢) الأحزاب (٣٣/ ٦)

(٣) الحجرات (٤٩/ ١٠)

(٤) محمد (٤٧/ ١٩)

(٥) غافر (٤٠/ ٧)

(٦) الحديث أخرجه ابن ماجة عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقال الترمذي حسن غريب ، وقال البيهقي إسناده صحيح . راجع كشف الخفاء للعجلوني (٢/ ١٤) .

الفضيلة الثالثة لهذه الكلمة

ان كل طاعة فإنه يصعد بها الملك ، أما قول لا إله إلا الله فإنه يصعد بنفسه ، ودليله قوله تعالى : ﴿ **اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾[1] . أي : عمل الصالح ترفعه الملائكة . هكذا قال بعضهم[2]

* * *

الفضيلة الرابعة

قال بعضهم : الحكمة في قوله تعالى : ﴿ **إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت** ﴾[3] . ان يوم القيامة يتجلى نور كلمة لا إله إلا الله ، فينمحق في ذلك النور نور الشمس والقمر[4] ، لأن تلك الأنوار مجازية ، ونور لا إله إلا الله نور ذاتي واجب الوجود لذاته ، والمجاز يبطل في مقابلة الحقيقة ، فلا جرم يبطل كل نور في مقابلة هذا النور ، بل يبطل كل وجود في مقابلة هذا الوجود ، كما قال : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾[5] .

* * *

الفضيلة الخامسة

إن جميع الطاعات تزول يوم القيامة مثل الصلاة والصيام والحج ، فإن التكاليف الظاهرة تزول في عالم الغيب ، أما طاعة التهليل والتحميد فلا تزول عنهم ، وكيف يمكن زوالها عنهم والقرآن يدل على انهم مواظبون على الحمد ،

---

(١) فاطر (٣٥/١٠)

(٢) راجع الدر المفقود (٣/٩٥)

(٣) التكوير (٨١/١ ، ٢) .

(٤) ويبطل كل شيء ويبقى وجه الله الكريم وحده حيث يبقى ولا شيء غيره .

(٥) القصص (٢٨/٨٨) .

والمواظبة على الحمد تدل على المواظبة على الذكر والتوحيد . وإنما قلنا : انهم مواظبون على الحمد لقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده** ﴾[1] . ﴿ **دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾[2] . ﴿ **لا إله إلا هو ، له الحمد في الأولى والآخرة** ﴾[3] . فثبت انهم مواظبون على الحمد ، والمواظبة على الحمد مواظبة على الذكر ، فعلمنا أن جميع العبادات زائلة عن أهل الجنة إلا طاعة الذكر والتوحيد .

***

الفضيلة السادسة

ما روي في الآثار انه قال : « إذا قال العبد : لا إله إلا الله ، فإنه تعالى يعطيه من الثواب بعدد كل كافر وكافرة على وجه الأرض »[4] . قال المحققون : السبب في ذلك انه لما قال هذه الكلمة ، فإنه قد رد على كل كافر وكافرة يثبت لله ضداً أو نداً أو شريكاً ، فلا جرم يستحق الثواب بعددهم .

***

الفضيلة السابعة

قال السدي في قوله تعالى : ﴿ **حمعسق** ﴾ : الحا ء حلمه وحكمه وحجته ، والميم ملكه ومجده ، والعين عظمته وعلمه وعزه وعدله ، والسين سناه وسره ، والقاف قدرته وقهره ، يقول : بحلمي وبحكمي وملكي ،

---

(١) الزمر (٣٩/٧٤)

(٢) يونس (١٠/١٠)

(٣) القصص (٢٨/٧٠)

(٤) ولم تقم على هذا القول أدلة ثابتة فربما يكون من أقوال أحد الصوفية .

وبمجدي وعظمتي ، وعزي وعلمي و عدلي ، وسنائي وسري ، وقدرتي وقهري ، لا أعذب في النار أبداً من قال : لا إله إلا الله[1] .

* * *

الفضيلة الثامنة

قيل : إذا كان آخر الزمان فليس لشيء من الطاعات فضل كفضل لا إله إلا الله ، لأن صلاتهم وصومهم يشوبها الرياء والسمعة ، وصدقاتهم يشوبها الحرام والشبهة ، فلا خلاص في شيء منها ، أما كلمة لا أله إلا الله فهي ذكر الله ، والمؤمن لا يذكر الله إلا من صميم القلب .

* * *

الفضيلة التاسعة

الأحاديث الواردة في فضل هذه الكلمة :

فالأول : قوله عليه السلام : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله »[2]

والثاني : عن ابن عمر رضي الله عنهما انه عليه السلام قال : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة الموت ، ولا وحشة عند النشر ، وكأني أنظر الى أهل لا إله إلا الله ينفضون شعورهم من التراب ويقولون : الحمد لله الذي

---

(١) وقد روى البزاز عن أبي سعيد :« من قال لا إله إلا الله دخل مخلصاً الجنة »وصححه السيوطى راجع الجامع الصغير للسيوطي .(١٧٧/٢) ط . المطبعة العلمية « وإخلاص كلمة التوحيد أن تحجز عن محارم الله . كشف الخفا (٣٧٢/٢)

(٢) رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن ثوبان وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٤٩/١) ط. العلمية . قال ابن حجر في الفتاوي الحديثة :وروى الديلمي « افضل العمل لا إله إلا الله وأفضل الدعاء استغفر الله » .كشف الخفا (١٧٢/١)

أذهب عنا الحزن »[1]

الثالث : يروى أن المأمون لما انصرف عن مرو يريد العراق ، واجتاز نيسابور ، وكان على مقدمته علي بن موسى الرضا ، فقام اليه قوم من المشايخ ، وقالوا : نسألك بحق قرابتك مع رسول الله ﷺ أن تحدثنا حديثاً ينفعنا . فروى عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى أنه قال : « لا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي »[2] .

الرابع : روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ انه قال : « يفتح الله أبواب الجنة ، وينادي منادٍ من تحت العرش : أيتها الجنة ، وكل ما فيك من النعم ، لمن أنت ؟ فتنادي الجنة ومن فيها : نحن لأهل لا إله إلا الله ، ونشتاق لأهل لا إله إلا الله ، ونحن محرمون على من لم يقل لا إله إلا الله ، ومن لم يؤمن بلا إله إلا الله »[3] .

الخامس : قال عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله »[4] . قال بعض العلماء : انه تعالى جعل العذاب عذابين : احدهما السيف من يد المسلمين ، والثاني عذاب الآخرة ، فالسيف في غلاف يرى ، والنار في غلاف لا يرى ، فقال لرسوله : من أخرج لسانه من غلاف المريء وهو الفم ، فقال : لا إله إلا الله ، أدخلنا السيف في الغمد الذي يرى ، ومن أخرج لسان القلب من الغلاف الذي لا يرى وهو السر ، فقال : لا إله

---

(١) فاطر (٣٥/٣٤) وأهل الجنة يقولون هذا عند دخولهم الجنة وقال المفسرون عبر عنها بالماضي لتحقق وقوعه والحزن يعم كل ما يكدر صفو الإنسان من المرض والفقر والهموم . راجع الطبري (٢٢/٩١) وأبو السعود (٤/٢٤٥)

(٢) أخرجه الحكيم في النوادر (ص ٢٠٦)

(٣) أين هذا الحديث من الواقع أو الإسناد العلمي ، لم نعثر على ما يتصل به سنداً ومتناً فيما بين أيدينا من مصادر فلعله ينفع في فضائل الأعمال فإن معناه صحيح . والله أعلم .

(٤) « وحسابهم على الله » لما أن كان حكمنا على الظاهر ، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتولى السرائر ويعلم ما تخفي الصدور .

إلا الله ، أدخلنا سيف عذاب الآخرة في غمد الرحمة ، حتى يكون واحد بواحد ، ولا ظلم ولا جور .

السادس : عن أنس قال : قال عليه السلام : « من قرأ عند منامه : ﴿ **شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ، لا أله إلا هو العزيز الحكيم . ان الذين عند الله الإسلام** ﴾[1] خلق الله تعالى سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة ، وأنا على ذلكم من الشاهدين »[2] .

السابع : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال عليه السلام : « إن فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، و﴿ **شهد الله** ﴾ - إلى قوله - ﴿ **ان الدين عند الله الإسلام** ﴾ ، و ﴿ **قل اللهم مالك الملك** ﴾ - إلى قوله - ﴿ **بغير حساب** ﴾[3] . معلقات ما بينهن وبين الله حجاب ، يقول الله عز وجل : بي حلفت ، لا يقرأكن أحد من عبادي إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه واسكنته حظيرة القدس ، ولأنظرن إليه بعين الرحمة كل يوم سبعين ألف مرة ، ولقضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، وأحفظه من كل عدو وحاسد »[4] .

الثامن : قال أبو سعيد الخدري : قال عليه السلام : « ما من عبد يقول أربع مرات : اللهم اني اشهدك وكفى بك شهيداً ، وأشهد حملة عرشك وملائكتك ، وجميع خلقك ، اني اشهد أن لا إله إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، الا كتب الله له صكاً لعتق من النار »[5]

---

(١) آل عمران (١٨/٣ ، ١٩) راجع في تفسير الآية القرطبي (٤١/٤) .

(٢) أخرجه الدارمي .

(٣) آل عمران (٢٦/٣ ، ٢٧ ، راجع تفسير الإمام الطبري (٣٠٩/٥) .

(٤) راجع العلل المتناهية ، ص ١٧٥ .

(٥) أخرجه الدارمي والترمذي عن أبي سعيد .

التـاسع : عن ابن عمـر قال : قـال ﷺ : « يجـاء بـرجـلٍ من أُمتي يـوم القيامة عـلى رؤوس الخلائق ، فينشـر عليه تسعـة وتسعين سجـلاً ، كل سجـل مثـل مـد البصـر ، فيقـال لـه : أتنكـر من هـذا شيئـاً ؟ أظلمـك الحـافـظون ؟ فيقـول : لا يا رب ، فيقـال : ألـك عـذر ؟ فيقـول : لا يـا رب ، فيقـول الله تعـالى : إن لك عنـدنا وديعـة ، وأنه لا ظلم عليـك اليوم ، فيخـرج له بـطاقـة فيهـا : اشهد ألا الله إلا الله ، وأشهـد أن محمداً عبـده ورسولـه . فيقـول : يـا رب ، مع هذه البـطاقة مـع السجلات . فيقـول الله : لا ظلم اليوم ، فتـوضع البطاقة في كفة ، والسجلات في كفة ، فطاشت السجـلات ، وثقلت البطاقـة ، فلا يثقل مع اسم الله شيء »[1]

العـاشر : عن أنس قـال : قال عليـه السلام : « مـا زلت أشفع الى ربي فيشفعني ، حتى أقـول : يا رب شفعني فيمن قـال : لا إله إلا الله ، فيقـول الله تعـالى : هذه ليست لـك يا محمـد ، انما هـذه لي ، وعزتي ورحمتي وحلمي ، لا أدع في النار أحداً قال : لا إله إلا الله »[2] .

واعلم ان اهل العرفان ذكروا في تفسير : « لا إله إلا الله » وجوهاً :

الأول : قـال ابن عباس : لا إلـه إلا الله : لا نـافـع ولا ضـار ولا معـز ولا مذل ولا معطي ولا مانع إلا الله .

الثـاني : لا إله يـرجى فضله ، ويخاف عـدله ، ويؤمن جـوده ، ويؤكـل رزقـه ، ويسأل عفـوه ، ويترك أمـره ، ويرتكب نهيـه ، ولا يحـرم فضله إلا الله الـذي هو رب العـالمين ، وغفـار المذنبـين ، وملجأ التـائبين المغمـومين ، وغـاية رجاء الراجين ، ومنتهى مقصد العارفين .

الثالث : قول العبد : لا إله إلا الله ، اشارة الى المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتسديـد ، الى الملك المجيد ، فـإذا قال : لا إلـه إلا الله ، فالمعنى : لا

---

(١) أخرجه ابو داود .

(٢) ذكره السيوطي في البدور السافرة وابن القيم في صادي الأرواح .

إله له الآلاء والنعماء ، والقدرة والبقاء ، والعظمة والسناء ، والعزة والثناء ، والسخط والرضا ، إلا الله الذي هو رب العالمين ، وخالق الأولين والآخرين ، وديان يوم الدين .

الرابع : لا إله للرغبة ، ولا إله للرهبة ، إلا الله الذي هو كاشف الكربة .

وعن عمران بن حصين قال : قال عليه السلام لأبي حصين : « كم تعبد اليوم من إله ؟ » قال : أعبد تسعة ، أو سبعة في الأرض وواحد في السماء . قال : « أيهم تعبده برغبتك ورهبتك ؟ » قال : الذي في السماء . قال : « فيكفيك إله السماء » . ثم قال : « يا حصين . لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك » . فأسلم حصين ، ثم قال يا رسول الله : علمني هاتين الكلمتين ، فقال : « قل : اللهم الهمني رشدي ، وأغفر لي ، وأعصمني من شر نفسي »[1] .

الخامس : قيل في قوله : ﴿ شهد الله ﴾[2] : يشهد الله تعالى في عوالم القدس ، وحظائر الجلال ، وسرادقات الصمدية ، والملائكة يشهدون بهذه الشهادة في السموات ، وأولوا العلم يشهدون بهذه الشهادة في الأرضين .

وقال جعفر الصادق وقد سألوه عن هذه الآية : « ان الله شهد لنفسه بالفردانية والصمدية والأحدية والأزلية ، ثم خلق الخلق ، فشغلهم بعبادة هذه الكلمة[3] ، وذلك لأن شهادة الحق لنفسه حق ، وشهادتهم له رسم ،فكيف يستوي الرسم مع الحق ، ومن أين للتراب طاقة على تجلي نور رب الأرباب .

وقال سعيد بن جبير : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿ شهد الله ﴾ خرت الأصنام سجداً حول الكعبة[4] .

(١) أخرج الحديث أبو داود وابن ماجة والطبراني .

(٢) آل عمران (٣/١٨) . راجع تفسير القرطبي للآية الشريفة (٤/٤٠ ، ٤١)

(٣) لأن النطق بها ذكر وعبادة ترفع الدرجات .

(٤) راجع الدر المنثور (١/١٣٥)

الفصل الثالث

في

أسماء كلمة التوحيد

الأول : كلمة التوحيد

وذلك لأنها تدل على نفي الشرك على الاطلاق . وفائدة قولنا : على الاطلاق ، انه تعالى لما قال : ﴿ وآلهكم إله واحد ﴾[1] . أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول : إن إلهنا واحد ، فلعل إله غيرنا مغاير لإلهنا . فالله تعالى أزال هذا التوهم ببيان التوحيد المطلق ، فقال : ﴿ لا إله إلا هو ﴾[1] . وذلك لأن قولنا : لا رجل في الدار ، يقتضي نفي الماهية ، ومتى انتفت الماهية ، انتفى جميع أفرادها ، إذ لو حصل فرد من افراد تلك الماهية لحصلت تلك الماهية ، لأن كل فرد من أفراد الماهية يشتمل على الماهية ، وإذا وجدت الماهية فذلك يناقض نفي الماهية ، فثبت أن قولنا : لا رجل في الدار ، يفيد النفي العام الشامل فإذا قيل بعد ذلك : الا زيداً ، أفاد التوحيد العام الكامل.

ثم أعلم ان لهذا ثمرتين :

الأولى : أن جوهر الانسان خلق في الأصل مشرفاً مكرماً ، قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾[2] . فإذا كان الأصل فيه كونه مكرماً كان كونه مطهراً على وفق الأصل ، وكونه منجساً على خلاف الأصل[3] ثم أنا رأينا الانسان متى أشرك صار نجساً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾[4] . فإذا كان الشرك يقتضي كونه نجساً مع ذلك على خلاف

(١) البقرة (٢/١٦٣)

(٢) الإسراء (١٧/٧٠) راجع تفسير الإمام الطبري (١٥/١٢٥)

(٣) فالأصل المفطور عليه الإنسان هو الطهارة والنقاء ولكن الخبائث تكتسب من أحوال الدنيا .

(٤) التوبة (٩/٢٨) والمشركون نجس لخبث باطنهم ، قال ابن عباس أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وقال الحسن من صافح مشركاً فليتوضأ . القرطبي (٨/١٠٣)

الأصـل ، فكونـه مـوحـداً بـأن يقتضي كـونـه طاهراً أولى ، لأنـه عـلى وفق الأصـل . واذا ثبت أن المـوحـد كـامـل في كـونـه طـاهــراً وجب أن يكـون من خواص الله تعالى ، لقوله : ﴿ **والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات** ﴾[1] .

الثـانية : أن الشـرك سبب لخراب العـالم ، بدليـل قولـه تعالى : ﴿ **تكـاد السمـوات يتفـطرن منـه وتنشق الأرض وتخـر الجبـال هـداً . إن دعـوا للرحمن ولـداً** ﴾[2] . وإذا كان الشـرك سبباً لخـراب العالم ، وجب أن يكـون التـوحيـد سببـاً لعمارة العـالم ، ضرورة كـون الضدين مختلفـين في الحكم ، فـإذا ثبت أن كلمة التوحيـد سبب لعمارة العـالم ، فأولى أن تكـون سبباً لعمـارة القلب الذي هو محل الـوحدانيـة ، ولعمارة اللسـان الذي هـو محل ذكـر الوحـدانية ، وذلـك يناسب عفو الله عن أهل التوحيد .

***

الاسم الثاني

أن هــذه الكلمــة تسمى « كلمــة الاخــلاص » . وكـان معـروف الكـرخي[3] يقول : « يـا نفسي ، تخلصي » . ثم التحقيق فيه : أن كـل شيء يتصور أن يشوبـه غيره ، فـإذا صفا عن شـوبه ، وخلص لله ، سمي خـالصـاً ، وسمي الفعل اخلاصاً .

ولا شـك أن كل من أتى بفعـل اختياري فـلا بد لـه في ذلـك الفعـل من غـرض ، فمتى كان الغـرض في الفعل واحـداً ، سمي هذا الفعـل اخلاصـاً . فمن تصـدق وكان غـرضه محض الـريـاء فهـو غـير مخلص ، ومن كـان غـرضـه محض التقــرب الى الله فهــو مخلص ، ولكن العــادة جــاريــة بتخصيص اسم الاخـلاص بتجريـد قصد التقـرب الى الله تعـالى عن جميـع الشـوائب ، كـما ان

---

(١) النور (٢٤/٢٦) راجع صفوة التفاسير للصابوني (١٨/٩٣٠)

(٢) مريم (١٩/٩٠ ، ٩١)

(٣) كان معروف الكرخي عابداً ورعاً زاهداً وكان مستجاب الدعوة توفي سنة ٢٩٥ هـ .

الالحاد هو الميل ، ولكن خصصه العرف بالميل عن الحق .

فإذا عرفت هذا فنقول : الباعث على الفعل إما أن يكون روحانياً فقط ، وهو الاخلاص ، أو شيطانياً فقط ، وهو الرياء[1] ، أو مركباً منهما ، وهو على ثلاثة أقسام ، لأن الطرفين إما أن يكونا على السوية ، أو يكون الروحاني أقوى ، أو يكون النفساني أقوى .

القسم الأول : وهو أن يكون الباعث روحانياً فقط ، وهذا لا يتصور إلا من محب الله ، مستغرق الهم به ، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه مقر ، حتى لا يحب الأكل والشرب ، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة ، من حيث انه ضرورة الجبلة . فلذلك لا يشتهي الطعام لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على عبادة الله . فمثل هذا الشخص اذا أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل في جميع حركاته وسكناته ، ولو نام مثلاً لتستريح نفسه فتقوى على عبادة الله كان نومه أيضاً عبادة .

أما القسم الثاني : وهو أن يكون الباعث نفسانياً ، فهذا لا يتصور إلا من محب للنفس والدنيا ، مستغرق الهم بهما ، بحيث لم يبق لحب الله في قلبه مقر . وكما انه في القسم الأول لما غلب حب الله وحب الآخرة على قلبه ، اكتسب بحركاته الاختيارية هذه الصفحة[2] ، فكذلك من غلب على قلبه حب النفس والدنيا ، اكتسبت جميع أفعاله تلك الصفة[3] ، فلا يسلم له شيء من عبادته ، وهذان القسمان لا يخفى حكمهما في الثواب والعقاب .

وأما الأقسام الثلاثة الباقية فنقول :

أما الذي فيه الباعثان [متساويين] ، فالأظهر انهما يتعارضان ، ويتناقضان ، فيصير ذلك العمل لا له ولا عليه ، وأما الذي يكون أحد

(١) وبين الاخلاص والرياء شعرة يحذرها العقل الحصيف .

(٢) كذا وردت في بعض النسخ والأصح (الصفة) وهي تحريف والقصد صفة الاخلاص .

(٣) ويقصد بها صفة الرياء .

الـطرفين فيـه أغلب ، فينحط منه مـا يساوي الـطرف الآخـر ، وتبقى الـزيـادة موجبة أثـرها الـلائق بها . وذلـك هو المـراد بقولـه تعالى : ﴿ **فمن يعمـل مثقال ذرة خيـراً يره . ومن يعمـل مثقال ذرة شـراً يره** ﴾[1] . وقـولـه : ﴿ **ان الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾[2]

وتمام التحقيق فيه : ان الأعمال لها تأثيرات في القلب ، فـإذا خلا المؤثـر عن المعارض خلا الأثر عن المضعف ، وإذا كان المؤثر مقرونـاً بالمعـارض ، فإن تساويا تسـاقطا ، وإن كـان أحدهمـا أغلب فلا بـد وأن يحصل في الـزائد بمقـدار النـاقص ، فيحصل التسـاوي بينهما ، أو يحصـل التساقط ويبقى القـدر الـزائـد خـالياً عن المعـارض ، فيؤثـر لا محـالة أثـراً مـا ، وكـما لا يخلو مثقـال ذرة من الـطعـام أو الشـراب عن أثـر في الجسـد ،فكـذلـك لا يخلو مثقـال ذرة من الخـير والشـر عن أثر في التقـريب من بـاب الله تعـالى أو التعبـير منـه . فـإذا جـاء بمـا يقربه شبراً مع مـا يباعـده شبراً فقـد عاد الى مـا كان عليـه ، لا له ولا عليـه . واذا كان أحد الفعلين ممـا يقربـه شبرين والفعـل الثاني ممـا يباعـده شبراً واحـداً اقترب لا محالة شبراً الى الله[3] .

واحتج من زعم ان المشوب لا ثواب عليه بوجهين :

الحجـة الأولى : ما روي أن رجـلاً سـأل النبي ﷺ عمن يصنـع المعروف ثم يحب أن يحمـد عليه ويؤجـر ، فلم يدر مـا يقـول حتى نـزل : ﴿ **فمن كـان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[4] .

الحجة الثانيـة : ما روى أبـو هريـرة رضي الله عنه أنـه عليه السـلام قال

---

(١) الزلزلة (٩٩/٧ ، ٨)

(٢) النساء (٤/٤٠)

(٣) راجع آداب النفوس .

(٤) الكهف (١٨/١١٠) أي ليكن عمله خالصاً لوجه الله فلا يرائي به أحداً .

لمن أشرك في عمله أحداً : « خذ أجرك ممن عملت له »[1] . وعن النبي ﷺ أن الله يقول : « أنا أغني الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري ، تركت نصيبي لشريكي »[2]

والجواب عن الحجة الأولى : أنها محمولة على ما اذا أتى بالعمل لغرض الدنيا فقط .

والجواب عن الثانية : ان لفظ الشرك محمول على تساوي الداعيين ، وقد بينا انه عند التساوي ينحبط كل واحد منهما بالآخر .

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : كلمة لا إله إلا الله ، مسماة بكلمة الاخلاص ، وذلك أن الأصل في هذه الكلمة عمل القلب ، وهو كون الإنسان عارفاً بقلبه وحدانية الله تعالى ، وهذه المعرفة الحاصلة بالقلب مستحيل أن يؤتى بها لغرض آخر سوى طاعة الله وحبه وعبوديته فهذه المعرفة ان طلبت ظلت لوجه الله تعالى ، لا لغرض آخر البتة ، بخلاف سائر الطاعات البدنية ، فإنها كما يؤتى بها لتعظيم الله ، قد يؤتى بها لسائر الأغراض العاجلة من الدنيا ، وطلب المدح والثناء ، فلهذا السبب سميت هذه الكلمة بكلمة الاخلاص .

* * *

الاسم الثاني لهذه الكلمة:« كلمة الإحسان »

ويدل على صحة هذه التسمية القرآن والخبر والمعقول . أما القرآن فآيات :

احداها قوله تعالى : ﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾[3] . قال

---

(١) راجع أسباب النزول للواحدي (ص ٧٨) (٢) أخرجه الترمذي وأحمد والطبراني .

(٣) الرحمن (٥٥ / ٦٠) اي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن أليه في الآخرة قال ابو السعود : أي ما جزاء الإحسان في العمل إلا الاحسان في الثواب . راجع أبو السعود (١٢٧/٥)

المفسرون المراد من قوله : ﴿ **هل جزاء الاحسان** ﴾ : هل جزاء الإيمان[1] . والتحقيق فيه : أن عليك عهد العبودية ، وعلى كرمه عهد الربوبية ، كما قال تعالى : ﴿ **وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم** ﴾[2] . وعهد عبوديتك : أن تكون عبداً له لا لغيره . ثم كمال هذه الدرجة : ان تعرف ان كل ما سوى الله فهو عبد لله ، كما قال : ﴿ **إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً** ﴾[3] . ومن أتى بالفعل على احسن الوجوه كان محسناً فيه . وقوله : لا إله إلا الله ، يدل على اعترافه بأن كل ما سواه فهو عبده ومربوبه . فثبت أن قول : لا إله إلا الله ، احسان من العبد ، فقوله : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ أي : هل جزاء من أتى بقول لا إله إلا الله إلا أن أجعله في حماية لا إله إلا الله .

والثانية قوله تعالى : ﴿ **للذين احسنوا الحسنى وزيادة** ﴾[4] . والمرادمن قوله : ﴿**للذين أحسنوا** ﴾ هو : قول لا إله إلا الله باتفاق أهل التفسير[5] . وبدليل انه لو قال ذلك ومات ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة .

وثالثها قوله : ﴿ **ومن احسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً**﴾[6] . واتفقوا على ان هذه الآية نزلت في فضيلة الأذان[7] ، وما ذاك إلا لاشتمال الأذان على كلمة لا إله إلا الله ، وأيضاً فإنه تعالى قال في صفة الكافرين : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً** ﴾[8] ، فكما أنه لا قبيح اقبح من كلمة

---

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٧/٧٣)

(٢) البقرة (٢/٤٠)

(٣) مريم (١٩/٩٣)

(٤) يونس (١٠/٢٦)

(٥) راجع تفسير القرطبي (١٥/١١٦)

(٦) فصلت (٤١/ ٣٣)

(٧) راجع كنز العمال (٤/٢٦٦)

(٨) العنكبوت (٢٩/٦٨) راجع الجامع لأحكام القرآن (١٣/٣٦٣)

الكفر ، لا حسن أحسن من كلمة التوحيد ، ولهذا قال تعالى في أول سورة المؤمنين : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾[1] . وقال في آخر السورة : ﴿ **إنه لا يفلح الكافرون** ﴾[2]

ثم انه لما كان قول الموحد حسناً كان مقيله حسناً ، كما قال تعالى : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً وأحسن مقيلا** ﴾[3] ولما كان قول الكافر قبيحاً كان مقيله أيضاً مظلماً ، قال تعالى : ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات**﴾[4] .

ورابعها قوله تعالى : ﴿ **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾[5] . ولا شك أن أحسن القول لا إله إلا الله .

وخامسها قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[6] . قيل : العدل : الاعراض عما سوى الله تعالى ، والاحسان : الإقبال على الله تعالى .

وسادسها قوله تعالى : ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم** ﴾[7] . ولا شك أن الإحسان قول : لا إله إلا الله .

وأما الخبر فما روى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » : للذين قالوا : لا إله إلا الله الحسنى وهي الجنة ، والزيادة هي النظر الى وجهه الكريم [8] .

وأما المعقول فهو : أنه كلما كان الفعل حسناً كان فاعله أكثر إحساناً ، ولا شك أن أحسن الأذكار ذكر لا إله إلا الله ، وأحسن المعارف معرفة لا إله إلا الله ، وإذا كان كذلك كانت هذه المعرفة وهذا الذكر إحساناً .

* * *

---

(١) المؤمنون (٢٣/ ١)

(٢) المؤمنون (٢٣/ ١١٧)

(٣) الفرقان (٢٥/ ٢٤)

(٤) البقرة (٢/ ٥٧)

(٥) الزمر (٣٩/ ١٨)

(٦) النحل (١٦/ ٩٠)

(٧) الإسراء (١٧/ ٧)

(٨) راجع الدر المنثور (٣/ ١٧)

الاسم الرابع : « دعوة الحق »

قال الله تعالى في سورة الرعد : ﴿ له دعوة الحق ﴾[1] . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله[2] . واعلم أن قوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾ يفيد الحصر ، ومعناه : له هذه الدعوة لا لغيره ، كما أن قوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾[3] معناه : لكم دينكم لا لغيركم ، ولي ديني ، وتحقيق الكلام في اثبات هذا الحصر : ان الحق نقيض الباطل ، فالحق هو الموجود والباطل هو المعدوم ، فلما كان الحق سبحانه وتعالى حقاً في ذاته وبذاته وصفاته ، وكان ممتنع التغير في حقيقته ، كانت معرفته هي المعرفة الحقة ، وذكره هو الذكر الحق ، والدعوة اليه هي الدعوة الحقة .

أما كل ما سواه فهو ممكن لذاته، ولا يكون حقاً لذاته ، فلا تكون معرفته واجبة التحقيق ، ولا ذكره ولا الدعوة اليه . وإذا ثبت هذا ظهر تحقيق قوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾ .

واعلم ان دعوة الحق تارة تكون من الحق للخلق الى الحق ، وتارة تكون من الخلق للخلق الى الحق .

أما الأول فنقول : إما أن دعوة الحق تكون من الحق فلأنه تعالى هو الذي دعا القلوب الى حضرته ، فلولا دعوته الى تلك الحضرة ، وتوفيقه في ذلك [ما كان] الوصول ، وإلا فمن أين يتمكن العقل البشري من الوصول الى حضرة الله تعالى . وأيضاً فلأن مبادىء[4] الحركات ، وأوائل المحدثات تنتهي الى قدرة الله تعالى وقضائه وقدره ، ولهذا المعنى قال الله تعالى : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾[5] . وأما أن تلك الدعوة للخلق فلقوله تعالى :

---

(١) الرعد (١٣/ ١٤) .

(٢) راجع الدر المنثور (٣/ ٢٠٠)

(٣) الكافرون (١٠٩ / ٢)

(٤) المبادىء والحركات في [ج]

(٥) الروم (٣٠/ ٤)

﴿ لمن الملك اليوم﴾[1] . وأما الانتهاء الى الحق فلقوله تعالى : ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾[2] .

وأما أن دعوة الحق تارة تكون من الخلق فلقوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله ﴾[3] . ولقوله : ﴿ إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾[4] .

* * *

الاسم الخامس : « كلمة العدل »

قال الله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[5] . قال عثمان بن مظعون الجمحي : ما اسلمت يوم أسلمت إلا حياء من رسول الله ﷺ ، وذلك أنه كان كثيراً ما يدعوني الى الإسلام ، فأستحييت منه وأسلمت ، ولكن الإسلام ما كان مستقراً في قلبي ، ثم انه عليه السلام دعاني يوماً فجلست اليه ، فبينما هو يحدثني أذ وقع بصري على شخص ينزل من السماء ، فإذا هو جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان ﴾ . العدل : شهادة ألا إله إلا الله ، والاحسان القيام بالعبودية ، قال عثمان : فوقع الاسلام في قلبي[6] .

وقال ابن عباس : العدل : شهادة ألا إله إلا الله ، والاحسان : الاخلاص فيه [7] .

---

(١) غافر (١٦/٤٠)
(٢) النجم (٥٣ / ٤٢)
(٣) فصلت (٤١ / ٣٣)
(٤) آل عمران (١٩٣/٣)
(٥) النحل (٩٠/١٦)
(٦) راجع الدر المنثور (٧٩/٣)
(٧) راجع تفسير القرطبي (٨٨/١٠)

وقال آخرون : العدل مع الناس بالرعاية ، والاحسان مع نفسك بالطاعة[1] .

قال تعالى : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾[2] .

وقال آخرون : العدل مع الأعضاء ، والاحسان مع القلب[3] .

وقال آخرون : العدل : رؤية الافتقار الى الحق ، والاحسان : مشاهدة الحق الى كل شيء في الخلق[4] .

واعلم ان السبب في تسمية هذه الكلمة بكلمة العدل وجوه :

الأول : ان العدل في كل شيء : تحصيل ما هو سبب اعتداله ، وكمال حلوله . ومن المعلوم ان كمال القوى الحساسة في ادراك المحسوسات ، وكمال القوى الشهوانية في طلب الاشياء النافعة الجسمانية ، وكمال القوى الغضبية في دفع الأشياء الجسمانية المنافية ، وأما القوى العقلية وكمال حالها ، وغاية سعادتها ، فبأن ترسم فيها صور الحقائق ، وأشباه المعقولات كما هي ، حتى تصير القوى العقلية كالمرآة التي تتجلى فيها صور الوجود بتمامها .

ولا شك أن أشرف المعقولات وأعلاها : معرفة جلال الله وقدسه وعظمته وعزته ، فكان غاية المعقول ، واعتدال الأرواح البشرية ، والقوى العقلية : كونها مقبلة على هذه الحال ، مستغرقة فيها . فلهذا السبب سميت كلمة لا إله إلا الله « كلمة العدل » .

السبب الثاني : ان هذه الكلمة إنما سميت بكلمة العدل لأن معرفة الله متوسطة بين الافراط الذي هو التشبيه ، وبين التفريط الذي هو التعطيل ،

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الإسراء (١٧/٧)

(٣) الدر المنثور (٢/٩٥) .

راجع السابق .

فمن بالغ في الاثبات وقع في التشبيه[1] ومن بالغ في النفي وقع في التعطيل[2] والحق هو طريق الاعتدال بين هذين الطرفين المتباينين .

السبب الثالث : من ترك النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى ، وعدل على الطريقة التي ألفها بحثه وخياله ، وقع في الضلال . ومن توغل في البحث ، وأراد الوصول الى كنه العظمة ، وهوية الجلال ، تحير وتردد ، بل عمي ، فإن نور جلال الإلهية مما يعمي أحداق العقول البشرية ، فصار هذان الطرفان مذمومين .

والطريق المستقيم هو : أن يخوض الانسان البحر المعتدل في البحث ، ويترك التعمق ، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله : « تفكروا في الخلق ، ولا تتفكروا في الخالق »[3] .

فهذه هي الوجوه التي لأجلها سميت كلمة لا إله إلا الله كلمة العدل .

فإن قيل : كيف أمر الله تعالى بالعدل في بحر التوحيد ، وقد قال تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾[4] فمن يعجز عن العدل في حق النساء يقدر على العدل في معرفة الأحد الصمد ؟

فالجواب : أنه تعالى أظهر عجزك في الضعيف ، وأقدرك على الشريف ، لتعرف ان الكل منه سبحانه وتعالى[5]

* * *

(١) أي تشبيه الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته بما له وبما فيهم من صفات كالوجه واليد والعين وغيره .

(٢) التعطيل هو نفي هذه الصفات المتشابهات يوقع في تعطيل أوصاف وصف الله بها نفسه في كتابه وسنة رسوله ﷺ .

(٣) أخرجه أبو داود عن ابن عمر .

(٤) النساء (٤/١٢٩)

(٥) ولما كان العقل هو مناط العدل وتعويله عليه ، فإن العدل صعب وجوده إزاء الشهوة بالنساء ، إذ أنهن يأخذن بالعقل والحصافة فيضطرب العدل من جراء ذلك .

الاسم السادس: « الطيب [من القول] »

قال الله تعالى في سورة الحج : ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾[1] . وأي كلمة توجد أطهر وأطيب من هذه الكلمة وقد قال تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾[2] . ثم إن النجاسة الحاصلة بسبب كفر سبعين سنة تزول بسبب ذكر هذه الكلمة مرة واحدة .

وتحقيق القول فيه : ان الطيب هو اللذيذ . واللذة هي : ادراك الملائم . وقد بينا أن الملائم للقوى الحساسة : ادراك المحسوسات[3] والملائم للقوى الشهوانية : جلب النافع الجسماني ، وللقوة الغضبية دفع المنافي الجسماني[4] ، وأما الملائم للقوة العقلية فهو ادراك جلال الله وقدسه وعظمته وعزته .

إذا عرفت هذا فنقول : ادراك القوة العاقلة أقوى من ادراك القوة الحساسة ، وسيأتي شرح هذا فيما بعد ان شاء الله تعالى ، وأما مدركات القوى الحساسة فهي الأعراض القائمة بالأجسام الكائنة الفاسدة ، ومدرك القوة العاقلة هو : ذات الله تعالى[5] وعظمته وجلاله . وظاهر انه كلما كان الادراك أقوى والمدرك أشرف كانت اللذة الحاصلة بسبب الادراك أشرف وأعلا .

فعلى هذا نسبة اللذة العقلية الى اللذة الحسية في الشرف والقوة كنسبة الادراك العقلي الى الادراك الحسي ، وكنسبة ذات الله تعالى وصفاته في الشرف والتعالي الى الأعراض القائمة بالأجسام[6] . وكما أنه لا نهاية للنسبة

(١) الحج (٢٢/٢٤)

(٢) التوبة (٩/٢٨)

(٣) المحسوسات في (ج)

(٤) فرج (دفع النافع الجسماني) وهو خطأ .

(٥) ليس في إمكان البشر الوصول الى ذات الله تعالى ، ولكن الممكن هو ما يتصل ويتعلق بها فقط .

(٦) وهناك فرق كبير وبون بعيد بين شرف اللذة ، وشدة أخذها وقوة نزولها .

الحاصلة بين هـذين الادراكين وبـين هذين المـدركين ، فكـذلك لا نهايـة للنسبة الحـاصلة بـين اللذات العقليـة الحـاصلة بسبب ادراك جـلال الله وبـين اللذات الحاصلة بسبب الروائح والطعوم وسائر المحسوسات[1] .

واذا عـرفت هذا ظهـر ان الطيب المـطلق هو : معـرفـة ألا إلـه إلا الله ، وذكـر لا إلـه إلا الله ، والاستغـراق في انـوار جـلال لا إلـه إلا الله ، فلهـذا السبب قال تعالى : ﴿ **وهدوا الى الطيب من القـول** ﴾[2] . والمراد منـه : كلمة لا إله إلا الله .

والألف واللام في لفظة « الطيب » للاستغراق ـ كأنه تعالى ينبه الى انه لا لـذيذ ولا طيب إلا هـذا ، وذلك هـو الحق ، لأنـا بينـا أن أطيب المحسـوسـات بـالنسبة إلى طيب هـذه الحالـة عدم محض ، فلذلـك بين بحـرف الاستغراق أن كل طيب ليس إلا ذلك .

* * *

الاسم السابع : « الكلمة الطيبة »

قـال الله تعالى : ﴿ **ألم تـر كيفـضـرب الله مثـلاً كلمـة طيبـة كشجـرة طيبـة أصلها ثـابت وفرعهـا في السماء** ﴾[3] . اختلفـوا في انـه تعـالى لِمَ سمـاهـا كلمة طيبة على وجوه :

الأول : انها طيبة بمعنى انها طاهـرة عن التشبيه والتعـطيل ، ولكنها[4] . متوسطة بينهما ، مباينـة لكل واحـدة منهما . كـما أن اللبن خارج من بـين الفرث والدم ، وهو مبرأ عنهما ، مصفى عن شائبة كل واحد منهما .

الثـاني : أنها طيبة بمعنى أن صـاحبها يكـون طيب الاسم في الـدنيـا طيب

(١) الحواس [في الأصلين] وما أوردناه أصح .

(٢) الحج (٢٤/٢٢)

(٣) ابراهيم (٢٤/١٤)

(٤) ولأنها (ج)

المسكن في العقبى ، أما طيب اسمه فلقوله تعالى : ﴿ والطيبات للطيبين ﴾[1] . وأراد به المؤمنين والمؤمنات[2] . وأما طيب المسكن فلقوله : ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾[3] .

الثالث : أنها طيبة بمعنى انها مقبولة ، يقبلها الله تعالى ، وتصعد اليه ، كما قال تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾[4] . قالوا : والسبب في أن هذه الكلمة تصعد الى الله تعالى بذاتها : أنها طيبة . وقال عليه السلام « ان الله طيب لا يقبل إلا الطيب »[5] .

وتمام التحقيق فيه : أن العقل والروح عاشقان على التحلي والمعرفة والمكاشفة على ما سبق تقريره بالبرهان ، والمعرفة مجذوبة الى المعروف ، وإذا تصاعد العرفان الى المعروف ـ والعارف ملازم للعرفان ـ انجذب العارف الى المعروف ، وصعد اليه . فذلك هو المراد من قوله : ﴿ اليه يصعد الكلم الطيب ﴾ .

فإن قيل : قال المفسرون : الشجرة الطيبة هي النخلة [6] ، فما السبب في تشبيه كلمة التوحيد بالنخلة[7] . ؟

فالجواب عنه من وجوه :

الأول : أن شجرة النخلة لا تنبت في جميع البلدان ، بل في البعض دون البعض ، فكذلك كلمة التوحيد لا تجري على كل لسان ، ومعرفة التوحيد لا تحصل في كل قلب .

---

(١) النور (٢٤/ ٢٦)

(٢) راجع الدر المنثور (٢/ ٢٥٠)

(٣) التوبة (٩/ ٧٢)

(٤) فاطر (٣٥/ ١٠)

(٥) أخرجه ابو داود

(٦) راجع تفسير القرطبي (٩/ ١٥)

(٧) الكلمة الطيبة (على هامش ج) وذلك من نسخة أخرى .

الثـاني : إن النخلة أطـول الأشجـار ، وكـذا كلمـة التـوحيـد أعـلا الكلمات .

الثـالث : ان الشجرة الطيبة ثـابتـة في الأرض ، وفـروعهـا في السـماء ، فكـذا أصل الكلمـة الطيبـة ثابت في القلب ، وهـو المعرفـة ، وفرعهـا ثـابت في السماء ﴿ **اليه يصعد الكلم الطيب** ﴾[1]

الرابع : ان النخلة تحمـل كل سنـة مرتـين ، فكذلـك الإيمان يحمـل في الدنيا مرة فيثاب [المؤمن] لأجل إيمانه بأهلية الشهادة والولاية والأمـانة . ومـرة أخرى في الآخرة ، وهي الجنة الباقية ، والنعمة الدائمة .

الخـامس : ان النخلة وان حصل في وسط ثمـراتها نـواة لا خـير فيهـا ولا منفعـة ، فـإن قيمـة تلك الثمـرة[2] لا تنقص بسبب تلك النـواة ، وكـذا كلمـة التـوحيد وإن كـان يحصـل معهـا شيء من المعـاصي ، إلا أن قيمتهـا لا تنقص بسبب ذلـك : ﴿ **يا عبـادي الـذين أسـرفـوا عـلى أنفسهم لا تقنـطوا من رحمـة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعاً ، انه هو الغفور الرحيم** ﴾[3] .

السـادس : ان النخلة أسفلهـا الـذي يقـرب من النـاس كله شـوك ، والثمـرة والمنفعة لا تحصـل إلا في أعلاهـا ، فكـذلـك الـدين ، أولـه التكـاليف الشـاقة التي هي كـالشوك ، وفي أعـلاه الثمرة الحلوة اللذيـذة ، التي هي الجنـة والمعرفة [4] .

* * *

الاسم الثامن : « القول الثابت »

قال الله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بـالقول الثـابت في الحياة الـدنيا**

---

(١) فاطر (٣٥/١٠)

(٢) قيمة تلك الشجرة (ء)

(٣) الزمر (٣٩/٥٣)

(٤) ومن حيث ينتفع الإنسان بثمرة النخلة فإنـه أيضـا ينتفـع بالتـوحيد فـالنخلة تنفع البـدن بغذائهـا والتوحيد ينفع الروح والنفس ، وهذه وتلك كلاهما ينتفع بهما الإنسان في كل مكان وزمان .

وفي الآخرة ﴾[1] . وعلة التسمية من وجوه :

الأول : ان المذكور المعلوم ثابت واجب الثبوت لذاته ، ممتنع العدم لذاته . والقول والاعتقاد يتبعان المقول والمعتقد ، فلما كان المقول والمعتقد واجب الثبوت لذاته ، كان القول والاعتقاد كذلك ، فلهذا سماه الله بالقول الثابت .

الثاني : ان هذا القول ثابت لا يؤثر الذنب فيه ، بل هو مؤثر في ازالة الذنب ، لأن الموحد وان عظمت ذنوبه ، إلا أنه ترجى له المغفرة ، قال الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[2] . والكافر وان عظم كفره إذا رجع من الكفر الى التوحيد هدم التوحيد كفره .

الثالث : ان هذه الكلمة ثابتة في الآخرة ، لا ترتفع عن العبيد ، وذلك لأن أهل الجنة يشتغلون[3] في الجنة بذكر التوحيد . ألا ترى أن الله أخبر عنهم بقوله : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** ﴾[4] . ﴿**وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده** ﴾[5] . ﴿ **الحمد لله الذي هدانا لهذا** ﴾[6] .

الرابع : انها ثابتة لأن أصلها محكم ، وذلك لأن أول من شهد هذه الشهادة هو الله تعالى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو** ﴾[7] . فشهادة جميع الشاهدين بتوحيد الله تعالى فرع على شهادة الله ، وشهادة الله هي الأصل ، فكل شهادة أصلها شهادة الله فهي ثابتة في الدنيا والآخرة .

الخامس : ان الانسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار ، ومع

---

(١) إبراهيم (١٤/ ٢٧)
(٢) النساء (٤/ ١١٦)
(٣) مشغولون (ج)
(٤) فاطر (٣٥/ ٣٤)
(٥) الزمر (٣٩/ ٧٤)
(٦) الأعراف (٧/ ٤٣)
(٧) آل عمران (٣/ ١٨)

هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء والنار .

أما بيان أن الإنسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار ، فإن فرعون أغرق في الماء أولاً ، ثم انتقل من الماء إلى النار ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **أغرقوا فأدخلوا ناراً** ﴾[1] . وعجل السامري[2] أُحرق بالنار أولاً ، ثم نُقل من النار إلى الماء . بدليل قوله تعالى : ﴿ **لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً** ﴾[3] .

وأما أنه مع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء ولا النار ، فإن ابراهيم وموسى عليهما السلام كانا مع حقيقة هذه الكلمة ، فلم تعمل النار في ابراهيم ﴿ **قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم** ﴾[4] . ولم يعمل الماء في موسى : ﴿ **فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾[5] .

* * *

الاسم التاسع : « كلمة التقوى »

قال الله تعالى : ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾[6] . وفي سبب هذه التسمية وجوه :

الأول : أنه لما اتقى صاحب هذه الكلمة أن يصف ربه بما وصفه به المشركون وصفت[7] هذه الكلمة بأنها كلمة التقوى ، ورأس التقوى اتقاء

(١) نوح (٢٥/٧١) . راجع في تفسير هذه الآية التسهيل لعلوم التنزيل (١٥١/٤) .

(٢) عجل السامري هو عجل صنعه موسى السامري من بني اسرائيل قال تعالى فيه ﴿ **فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي** ﴾ طه [٢٠ / ٨٨] وقد عبد هذا العجل بنو اسرائيل في غيبة موسى وقالوا لهارون : ﴿ **لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى** ﴾ [طه ٩١/٢٠] .

(٣) طه (٩٧/٢٠)

(٤) الأنبياء (٦٩/٢١)

(٥) القصص (٧/٢٨)

(٦) الفتح (٢٦/٤٨)

(٧) وصفها (ج) وهي خطأ .

لكلمة الكفر .

ثم في هذه الآية اشارة وبشارة .

أما الإشارة فهي انه تعالى سمى نفسه ﴿أهل التقوى﴾ فقال : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾[1] . وسمى الموحدين أهل كلمة التقوى فقال : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ . وكأنه تعالى يقول : أنا أهل أن أكون مذكوراً بهذه الكلمة ، وأنت أهل لذكر هذه الكلمة ، فما أعظم هذا الشرف .

وأما البشارة فهي أنه تعالى قال : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾[2] . فأثبت أن الموحدين أحق الخلق بهذه الكلمة ، وهم أهل هذه الكلمة ، وأنه كريم لا ينزع الحق عن مستحقه ، فهذا يدل على أنه لا ينزع الإيمان من قلب المؤمن .

الثاني : في بيان أنه لم سميت هذه الكلمة بكلمة التقوى : هو أن هذه الكلمة واقية لبدنك من السيف ، ولمالك من الاستغنام ، ولذمتك من الجزية ، ولأولادك من السبي[3] ، فإن انضاف القلب الى اللسان صارت واقية لقلبك عن الكفر ، وإن انضم التوفيق اليه صارت واقية لجوارحك عن المعاصي ، ثم قال : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ . أي : نحن ألزمناهم بهذه الكلمة التي هي المفتاح لباب الجنة ، فنحن أردناهم أولاً ، وهم ما أرادونا[4] . فلنا المنة عليهم في فتح هذا الباب ، وتقريره بقوله تعالى : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا علي أسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾[5] .

* * *

(١) المدثر (٥٦/٧٤) راجع تفسير روح المعاني للألوسي (٢٩/ ١٣٥)

(٢) الفتح (٢٦/٤٨) .

(٣) من الاسترقاق (ج) .

(٤) وهذه هي محبة الله سبحانه وتعالى لعباده فهو جل شأنه دائماً يبدؤهم بالخير وما فيه إصلاح حالهم .

(٥) الحجرات (١٧/٤٩) .

الاسم العاشر: « الكلمة الباقية »

روي عن كثير من المفسرين انهم قالوا في تفسير قولـه تعالى : ﴿ **وجعلها كلمة باقية في عقبه** ﴾[1] . انها قول لا إله إلا الله[2] ويدل عليه وجوه :

الأول : مقدمة هذه الآية ، وهي قوله تعـالى : ﴿ **وإذ قال ابـراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبـدون ، إلا الذي فـطرني فإنـه سيهدين** ﴾[3] وكـان معنى قـوله : ﴿ **انني بـراء** ﴾[4] . نفي الإلهية عن الأشيـاء التي كانـوا يعبـدونها ، ثم قـال : ﴿ **إلا الذي فـطرني** ﴾ . فكـان فيـه إثبـات الإلهيـة للذي فـطره ، فـإذا حصـل هذان المعنيـان كـان مجمـوعهـا هـو قـول : لا إلـه إلا الله . ثم قـال : ﴿ **وجعلهـا كلمة بـاقية في عقبـة** ﴾[5] . فثبت أن المراد من الكلمـة الباقيـة قول لا إله إلا الله .

الثاني : انه تعالى قال في سـورة القصص : ﴿ **ولا تدع مع الله إلهاً آخـر لا إلـه إلا هو ، كـل شيء هالـك إلا وجهه** ﴾[6] . فبـين أن كل شيء هـالـك إلا هو ، فإنه واجب الدوام والبقـاء ، والسرمـدية . وقـد عرفت ان القـول تبع المقـول ، والاعتقاد تبـع المعتقد ، فكـان صدق لا إلـه إلا الله ، وحقيقة لا إلـه إلا الله واجبي الثبوت والبقاء والدوام ، وذلك هو المراد بكونها باقية .

الثـالث : إنا بينـا أن التوحيـد لا يزول بسبب المعصيـة ، والمعصية تـزول بسبب التـوحيد ، وأيضـاً التوحيـد يبقى مع أهـل الجنة ، وسـائر الـطاعـات لا تبقى ، روى جـابـر بن عبـد الله عن النبي ﷺ عن جبـريـل ان الله يقـول يـوم القيامة : ما لي أرى فلان بن فلان في صفوف اهـل النار ؟ فـأقول : يـا رب ،

---

(١) الزخرف (٤٣/ ٢٨)

(٢) راجع تفسير الخازن (٣/ ٨٦)

(٣) الزخرف (٤٣/ ٢٦ ، ٢٧)

(٤) إني بريء (الأصل) وهذا خطأ وما أوردناه أصح .

(٥) الزخرف (٤٣/ ٢٨) أي باقية الى يوم الدين . راجع مختصر ابن كثير (٣/ ٢٨٨) .

(٦) القصص (٢٨/ ٨٨) راجع تفسير البيضاوي (٢/ ٩٦) .

إنا لم نجد له حسنة . فيقول الله تعالى : إني سمعته في الدنيا يقول : يا حنان يا منان ، فاذهب اليه فسله . فيأتيه فيجده في زاوية من زوايا جهنم يقول : يا حنان يا منان ، فيسأله جبريل عن هذه الكلمة ، فيقول : وهل حنان منان غير الله ، قال جبريل : فآخذ بيده من صفوف أهل النار ، فأدخله في صفوف أهل الجنة [1] .

* * *

الاسم الحادي عشر:« كلمة الله العليا »

قال الله تعالى : ﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا** ﴾[2] . واعلم ان السبب في علو هذه الكلمة وجوه :

الأول : هو ان القلب إذا تجلى فيه نور هذه الكلمة كان ذلك التجلي نور الربوبية ، ونور الربوبية إذا تجلى في القلب استعقب حصول قوة وهيبة ربانية ، ولهذا السبب صار المتحققون بهذه الكلمة يستحقرون الأحوال الدنيوية ، ويستحقرون عظماء الملوك[3] ولا يبالون بالقتل [4] . ولا يقيمون لشيء من طيبات الدنيا وزناً ، وكل ذلك يدل على استعلاء قوة هذه الكلمة .

وانظر الى استغراق سحرة فرعون لما تجلى لهم نور هذه الكلمة ، كيف لم يلتفتوا إلى قطع الأيدي والأرجل ، وأن محمداً ﷺ لما استغرق في هذا النور لم يلتفت الى الملكوت ، كما قال تعالى : ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾[5] .

السبب الثاني في كون هذه الكلمة عالية : استعلاؤها في الدنيا على سائر الأديان ، كما قال تعالى : ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾[6] .

---

(١) وهذا الحديث لم أقف له على أصل فيما بين يدي من مراجع . (٢) التوبة (٩/ ٤٠).

(٣) لأن رسالتهم رسالة دائمة فيها خير الدنيا ونعيم الآخرة أما الملوك فسلطانهم في الدنيا وزخرفها وزينتها وآخرتهم الله وحده يعلم مصيرهم فيها فكان من الأوائل أشرف .

(٤) لذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يقع الطعن إلا في نحورهم إذ يدفعون بأنفسهم في ساحات الجهاد دون توجس أو تقاعس .

(٥) النجم (٥٣/ ١٧) . (٦) التوبة (٩ / ٣٣) .

الثالث : كونها مستعلية على جميع الذنوب ، فإنها تزيل جميع الذنوب ، وشيء من الذنوب لا يزيل نور هذه الكلمة .

* * *

الاسم الثاني عشر:« المثل الأعلى »

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾[1] . : معناه قول : « لا إله إلا الله » . . واعلم ان معنى المثل هنا الصفة ، كذا قال أهل اللغة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون** ﴾[2] أي صفتها . فصار المراد من قوله : ﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ عين المراد من قوله : ﴿ **وكلمة الله هي العليا** ﴾ .

* * *

الاسم الثالث عشر « كلمة السواء »

قال الله تعالى : ﴿ **تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم** ﴾[3] . قال أبو العالية الرباحي : هي كلمة « لا إله إلا الله » . والدليل عليه أنه تعالى قال بعده : ﴿ **ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً** ﴾[4] . ولا معنى لهذه الآية الا ما هو المراد من قول : « لا إله إلا الله » . فثبت أن المراد من كلمة السواء هو كلمة « لا إله إلا الله » .

ومما يقرر ذلك : أن جميع العقول معترفة بصحة « لا إله إلا الله » وجميع الألسنة ناطقة بها ، وجميع الرقاب خاضعة لها ، قال الله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله** ﴾[5] .

---

(١) النحل (١٦/ ٦٠)

(٢) الرعد (١٣/ ٣٥)

(٣) آل عمران (٣/ ٦٤)

(٤) آل عمران (٣/ ٦٤)

(٥) العنكبوت (٢٩/ ٦١) راجع التسهيل (٣/ ١١٩)

وأيضاً يحتمل أنها سميت كلمة السواء لأنها تفيد الاستواء في الدين والعقل والروح ، وتوجب الاستقامة ، وترك الاعوجاج في الأمور .

* * *

الاسم الرابع عشر : « كلمة النجاة »

والذي يدل عليه القرآن والحديث والعقول .

أما القرآن فمن وجهين :

الأول : قوله تعالى : ﴿ **ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[1] . فهذه الآية صريحة في أن النجاة لا تحصل بدون الإيمان بلا إله إلا الله . وتحصل مع الإيمان بلا إله إلا الله .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ **ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجوٰة وتدعونني إلى النار** ﴾[2] . النجاة قول لا إله إلا الله .

وأما الأخبار فيدل عليه الأخبار التي ذكرناها في الفصل الثاني ، ونريد ههنا أخباراً اخرى أحدها ما روى جابر بن عبد الله أنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الموحدين فقال : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار »[3] .

وثانيها : عن أبي سعيد الخدري قال : قال عليه [الصلاة و] السلام : « لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله »[4] .

وثالثها : رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلحة بن عبيد الله مقبلاً

---

(١) النساء (٤/٤٨) راجع الطبري (٨/٤٥٠) و (٨/٤٥٢)

(٢) غافر (٤٠/٤١) .

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود وروى البخاري عن أنس (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار)

(٤) أخرجه أبو داود ، وسبق تخريجه .

مغموماً بعد رسول الله عليه [الصلاة و]السلام ، فقال : ما لك ؟ قال : «سمعت عن رسول الله ﷺ حديثاً ما منعني أن أسأله إلا القدرة عليه حتى مات، سمعته يقول : إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه ، ونفس الله بها كربته . فقال : إني لأعلم ما هي ، فقال : وما هي ؟ قال : الكلمة التي أمر بها عمه عند الموت ، وهي : لا إله إلا الله ، فقال طلحة : صدقت ، هي والله »(٥)(١) .

ورابعها : روى أبو أمامة قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ينادي في الناس : « من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة » .

وخامسها : قال معاذ بن جبل حين حضرته الوفاة : اكشفوا عني سجف القبة حتى أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، لم يمنعني أن أحدثكموه إلا أن تتكلوا ، أو تتركوا العمل ، وتردوا النار . سمعته يقول : « من قال : لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه دخل الجنة ، ولم تمسه النار »(٢) .

وسادسها : عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً سول الله ، يجري بها لسانه ، ويطمئن بها قلبه ، حرمت عليه النار »(٣)

وسابعها : روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأبي ذر : « نادِ في الناس : من شهد أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة » . قال أبو ذر : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « وإن زنى وإن سرق » ـ حتى قالها ثلاث مرات ـ فقال الثالثة : « وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر »(٤) .

وثامنها : روى معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من كان

---

(١) أخرجه أحمد عن عمرو عن جابر وعن عثمان .

(٢) أخرجه النسائي .

(٣) أخرجه مسلم وابن ماجة والترمذي .

(٤) رواه الشيخان ، وقد أخطأ المؤلف رحمه الله إذ أورده عن أبي الدرداء وهو غير ذلك حقيقة .

آخر كلامه لا إله إلا الله ، وفاضت نفسه بعده ، دخل الجنة »[1] .

* * *

الاسم الخامس عشر:« العهد »

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ **لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً** ﴾[2] . : العهد هو قول لا إله إلا الله . وأقول : الذي يدل على صحة هذا القول وجوه :

الأول : أن قوله : ﴿ **الا من اتخذ عند الرحمن عهداً** ﴾ نكرة في طرف الثبوت ، وذلك لا يفيد إلا عهداً واحداً ، فهذه الآية تدل على أن تلك الشفاعة تحصل بسبب عهد واحد ، ثم أجمعنا على أن ما سوى الإيمان فإن الواحد منه ، بل مجموعة لا يفيد تلك الشفاعة البتة ، فوجب أن يكون العهد الواحد الذي يفيد تلك الشفاعة هو الإيمان ، وهو قول : لا إله إلا الله .

والثاني : ان جماعة من المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم** ﴾[3] ، هو عهد الإيمان ، بدليل أن لفظ العهد مجمل ، فلما أعقبه بقوله : ﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم** ﴾[4]، علمنا أن المراد من ذلك العهد هو الإيمان ، وهو قول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

والثالث : ان أول ما وقع في العهد قوله تعالى : ﴿ **ألست بربكم ، قالوا بلى** ﴾[5] . وذلك في الحقيقة هو قول لا إله إلا الله ، فكأن لفظ العهد محمول عليه .

---

(١) أخرجه الترمذي والدارمي . راجع كشف الخفا (٢/ ٣٧٥ ، ٣٧٦)

(٢) مريم (١٩/ ٨٨)

(٣) البقرة (٢/ ٤٠)

(٤) البقرة (٢/ ٤١)

(٥) الأعراف (٧/ ١٧٢)

والرابع : انه تعالى قال : ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم ﴾[1] . فكان العهد من جانبك عهد الاقرار بالعبودية ، ومن جانب الحق سبحانه وتعالى عهد الكرم والربوبية ، فثبت بهذه الوجوه : ان المراد من قوله : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾[2] . هو قول : لا إله إلا الله .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ قل اتخذتم عند الله عهداً ﴾[3] . أي قلتم لا إله إلا الله[4]

* * *

الاسم السادس عشر: « كلمة الإستقامة »

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾[5] . قال ابن مسعود رضي الله عنه : المراد من قوله تعالى : ﴿ استقاموا ﴾ هو قول لا إله إلا الله[6] ، وذلك لأن قولهم : ﴿ ربنا الله ﴾ إقراراً بوجود الرب ، ثم أن من المقرين بذلك من أثبت له نداً أو شريكاً فالذين نفوا الشركاء والأضداد هم الذين استقاموا على النهج القويم والصراط المستقيم .

واعلم ان السلامة في القيامة بقدر الاستقامة في نفي الشركاء ، فمن الناس من أنكر الوحدانية ، وهو الشرك الظاهر ، والاستقامة في الدين لا

---

(١) التوبة (٩/١١١) راجع الطبري (١١/٣٥) والتفسير الكبير للفخر الرازي مؤلف هذا الكتاب (١٦/١٩٩) وكشاف الزمخشري (٢/٣١٤)

(٢) مريم (١٩/٨٧)

(٣) البقرة (٢/٨٠)

(٤) راجع الدر المنثور (١/٤٠)

(٥) فصلت (٤١/٣٠)

(٦) الدر المنثور (٤/٦٥)

تحصل إلا بنفي الشركاء ، كما قال تعالى : ﴿ **فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾[1] .

ومنهم من أقر بالوحدانية في الظاهر ، إلا أنه يقول قولاً يهدم ذلك التوحيد ، مثل أن يضيف السعادة والنحوسة الى الكواكب ، ويضيف الصحة والمرض الى الدواء والغذاء ، ويضيف الفعل الى العبد على سبيل الاستقلال[2] ، فكل ذلك يبطل الاستقامة في معرفة الحق سبحانه وتعالى .

ومنهم من ترك كل ذلك ، ولكنه قد يطيع النفس والشهوة في بعض الأفعال ، واليه الإشارة بقوله : ﴿ **أفرأيت من اتخذ الهه هواه** ﴾[3] . وهذا النوع من الشرك هو المسمى بالشرك الخفي ، وهو المراد من قوله تعالى حكاية عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ﴿ **واجعلنا مسلمين لك** ﴾[4] . وقول يوسف عليه السلام : ﴿ **توفني مسلماً** ﴾[5] . فإن الأنبياء عليهم السلام مبرأون عن الشرك الجلي ، أما الحالة المسماة بالشرك الخفي ، وهي الالتفات الى غير الله ، فالبشر لا ينفك عنه في جميع الأوقات ، فلذلك السبب تضرع الأنبياء عليهم السلام الى الله تعالى في ان يصرفه عنهم[6] .

* * *

الاسم السابع عشر : « مقاليد السموات والأرض »

قال الله تعالى : ﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾[7] . قال ابن

---

(١) البقرة (٢/٢٢)

(٢) والكثير من الناس يتلهون بالسبب وينسون المسبب وهذا هو الخطأ الجسيم .

(٣) الجاثية (٤٥/٢٣) راجع تفسير البحر المحيط (٨/٤٨)

(٤) البقرة (٢/١٢٨) .

(٥) يوسف (١٢/١٠١) وهنا يوسف لم يتمن الوفاة وإنما الوفاة على الاسلام .

(٦) ان يصونهم عنه (هامش ج) من نسخة أخرى .

(٧) الزمر (٣٩٨/٦٣)

عباس : هو قول لا إله إلا الله[1] . . وأقول : هذا هو الحق ، ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه تعالى بيّن أنه لو كان في الوجود إلهان لحصل الفساد في العالم ، ولاختلت المصالح ، قال الله تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾[2] . فثبت أن الشرك سبب لفساد العالم ، وأن التوحيد سبب لانتظام العالم . فثبت أن مقاليد السموات والأرض هو قول : لا إله إلا الله .

الثاني : انا بينا أن الشرك سبب لفساد العالم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . إن دعوا للرحمن ولداً** ﴾[3] . وإذا كان كذلك كان التوحيد سبباً لعمران العالم .

الثالث : ان ابواب السموات لا تفتح عند الدعاء إلا بقول : لا إله إلا الله ، وأبواب الجنان لا تنفتح إلا بهذا القول ، وأبواب النيران لا تغلق إلا بهذا القول ، وباب القلب لا يفتح إلا بهذه الكلمة ، وأنواع الوساوس لا تندفع إلا بهذا القول ، فكانت هذه الكلمة أشرف مقاليد السموات والأرض ، وأعز مفاتيح الأرواح والنفوس والأجسام والعقول[4] .

* * *

الاسم الثامن عشر: « السديد »

قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً** ﴾[5] قيل في تفسيره : الفعيل قد يكون بمعنى الفاعل ، كالسميع

---

(١) راجع تفسير القرطبي (١٦/٩٥)

(٢) الأنبياء (٢١/٢٢) .

(٣) مريم (١٩/ ٩٠/٩١) .

(٤) قال تعالى : ﴿ **أفغير الله تأمروني أعبد ايها الجاهلون** ﴾ [الزمر ٣٩/٦٤] راجع مختصر ابن كثير في تفسير هذه الآية (٣/٢٢٨) .

(٥) الأحزاب (٣٣/٧٠) يقول الإمام الطبري : قولاً سديداً أي قولاً قاصداً غير جائر ، حقاً غير باطل . راجع الطبري (٢٢/٣٨)

بمعنى السامع ، وقد يكون بمعنى المفعول ، كالقتيل بمعنى المقتول ، والجريح بمعنى المجروح . فإذا جعلته بمعنى الفاعل كان معناه : أنه يسد على صاحبه أبواب جهنم . وإذا حملته[1] على معنى المفعول كان معناه : أنه يسد عن أن يضيره شيء من الذنوب .

وأيضاً فإن ذا القرنين بنى السد دفعاً لضرر يأجوج ومأجوج ، والله تعالى جعل الإيمان سداً لضرر الشياطين من الجن والإنس .

* * *

الاسم التاسع عشر : « البر »

قال الله تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾[2] . والاشارة في الآية : ان من كان مشتغلاً بجميع الجوانب والجهات لم يكن صاحب البر ، إنما صاحب البر هو الذي يتوجه الى صاحب الكعبة : ﴿ **إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً** ﴾[3] . فقوله : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب** ﴾ اشارة الى الكثرة والقول بالشركاء ، وقوله : ﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ اشارة الى التوحيد ، فصار معناه هو المفهوم من قول « لا إله إلا الله » .

* * *

الاسم العشرون : الدين »

قال الله تعالى : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ . وأعلم أن الدين هو : الانقياد والخضوع . قال عليه [الصلاة و]السلام في دعواته : « يا من دانت

---

(١) حملته (ج)

(٢) البقرة (١٧٧/٢) .

(٣) الانعام (٧٩/٦) .

لـه الرقـاب »[٢] أي خضعت . فقولـه : ﴿ ألا لله الـدين الخـالص ﴾ . أي لـه الخضوع والخشوع لا لغيره . وإنما يكـون كذلـك إذا كان واحـداً في الآلهية ، إذ لـو وجد إلهان لكان كـما أن الخضوع لأحـدهما حـاصل كـان أيضاً حـاصـلاً للثـاني ، فلا يمكن ثبـوت الخضـوع إلا لله فقط ، فـالحصـر دل عـلى أنـه لا إلـه سواه ، ولا معبود إلا إياه .

* * *

الاسم الحادي والعشرون : « الصراط »

قـال تعـالى : ﴿ إهـدنـا الصـراط المستقيم ﴾[٣] . وقـال حكـايـة عن رسوله : ﴿ وإن هذا صراطي مستقيماً فأتبعـوه ﴾[٤] . وقال : ﴿ وإنـك لتهدي الى صـراط مستـقيـم . صـراط الله الـذي لـه مـا في السـمـوات ومـا في الأرض ﴾[٥] .

واعلم أن هـذا الصراط المستقيم هـو قول لا إلـه إلا الله . وذلك بـاعتبار أن حـدوث كل محـدث ، وإمكان كـل ممكن ، يحوجـه إلى المؤثر الـذي يوجـده وينقله من العـدم الى الوجـود ، وإذا كان الموجد والمـدبر واحـداً ، فمتى نسبت حدوث المحدثـات ، ووجود الممكنـات الى قدرتـه كان ذلـك صراطـاً مستقيماً ، وطريقاً قويماً ، ومتى نسبت حدوث محدث ، ووجود ممكن الى غير قـدرته ، كـان ذلك طريقاً معوجاً ، وسبيلاً منحـرفاً ، فثبت أن الصـراط المستقيم لا يحصل إلا بـاسناد كـل الحوادث والممكنـات الى تخليق الله وتكوينـه ، واسناد الكـل اليه ، فهو التوحيد ، فثبت ان الصراط المستقيم هو قولنا : لا إله إلا الله .

* * *

---

(١) الزمر (٣/٣٩) .

(٢) أخرجه الترمذي .

(٣) الفاتحة (٦/١) .

(٤) الأنعام (١٥٣/٦) راجع مختصر ابن كثير (٦٣٣/١)

(٥) الشـورى (٥٢/٤٢ ، ٥٣) أي أنـك يـا محمـد لتهدي وتـرشـد الى دين قيم مستقيم . راجـع صفوة التفاسير (١٣١١/٢٥) بتصرف .

الاسم الثاني والعشرون : « كلمة الحق »

لقوله تعالى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق ﴾[1] . يعني قول لا إله إلا الله[2] .

* * *

الاسم الثالث والعشرون : « العروة الوثقى »

قال الله تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى »[3] . يعني : كلمة لا إله إلا الله[4] .

* * *

الاسم الرابع والعشرون : « كلمة الصدق »

لقوله تعالى : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾[5] . أي قول لا إله إلا الله[6] .

* * *

فهذا جملة الكلام في لا إله إلا الله . . . اللهم بحق اسمائك الطاهرة المقدسة ، احفظ بحفظك معرفة هذه الكلمة في قلوبنا ، وذكرها على ألسنتنا ، يا أرحم الراحمين .

* * *

(١) الزخرف (٨٦/٤٣)
(٢) راجع تفسير الخازن (١٥/٤) .
(٣) البقرة (٢٥٦/٢)
(٤) راجع تفسير القرطبي (١٩٥/١٧) .
(٥) الزمر (٣٣/٣٩)
(٦) راجع الجامع لأحكام القرآن (٩٧/١٥) .

الفصل الرابع

في

الأشياء التي شبه الله تعالى بها كلمة التوحيد

الأول : النار

الأول ان الله تعالى شبه الإيمان بالنار ، فقال : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً** ﴾[1] . وقال في آية أخرى : ﴿ **ومما يوقدون عليه في النار** ﴾[2] . وفيه اشارتان : الأولى : كما أن النار إذا عرضت عليها الذهب المغشوش احرقت كل ما فيه من الغش ، وبقي جوهر الذهب سليماً عن الاحتراق ، فكذلك يوم القيامة ، إذا عرض المذنب على النار أحرقت ذنوبه ومعاصيه ، وبقي إيمانه سليماً من الاحراق .

الثانية : ان النار تحرق كل شيء ، وكذا الايمان إذا قوي نوره حرق ما سوى محبة الله تعالى عن القلب : ﴿ **قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون** ﴾[3]

* * *

النوع الثاني : النور

النوع الثاني : من الأمور التي شبه الله بها الإيمان : النور ، قال الله تعالى : ﴿مثل نوره﴾[4] . والسبب في أنه تعالى أضاف المعرفة الى نفسه

(١) البقرة (١٧/٢) راجع مختصر ابن كثير (٣٦/١) .

(٢) الرعد (١٧/١٣) .

(٣) الأنعام (٩١/٦) .

(٤) النور (٢٤/ ٣٥) أي نور الله سبحانه وتعالى : قال ابن عطاء الله « الكون كله ظلمة أناره ظهور الحق فيه » . وقال ابن مسعود « ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض ونور وجهه » . راجع صفوة التفاسير (٩٣٦/١٨) بتصرف والتسهيل (٦٧/٣) .

وجوه :

الأول : أنه تعالى إنما أضاف المعرفة الى نفسه قطعاً للأطماع عنها ، وذلك لأنها جوهرة نفيسة ، وقيمتها رفيعة ، وصاحبها غافل ، والشيطان محتال مكار ، وجل مقصوده أن يسلب المعرفة من العارف ، ويحول بينه وبينها ، والله تعالى برحمته جعل المعرفة في حمايته ، حتى ينقطع طمع إبليس عنها .

وتحقيقه : أنه لما قال : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾[1] . فلما أضاف العباد الى نفسه انقطع طمع إبليس عنهم فقال : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾[2] . فهنا لما أضاف الإيمان الى نفسه بقوله : ﴿ **مثل نوره** ﴾ لا جرم كان إبليس منقطعاً عنه .

الثاني ان كل ما للعبد فهو للحق ، لأنه حصل بتخليقه وايجاده ، فإذا بلغ العبد درجة يشهد فيها هذه الحالة فقد كملت حاله ، فعند ذلك قيل له : كل ماله فهو لنا ، وكل ما لنا فهو له . والمعرفة التي له فهي لنا ، فلا جرم أضافها الى نفسه فقال : ﴿ **مثل نوره** ﴾ .

الثالث : ان تخصيص الشيء باضافته الى الله تعالى سبب لتشريفه ، كما في قوله : ﴿ **وطهر بيتي** ﴾[3] . وقوله : ﴿ **هذه ناقة الله** ﴾[4] . وقوله : ﴿ **وإنه لما قام عبد الله** ﴾[5] . . فكذا هنا ، اضافة المعرفة الى نفسه تدل على أنها أشرف الخلع والتشريفات .

ثم ههنا سؤالات :

السؤال الأول : ما الحكمة في أنه شبه نور المعرفة بنور السراج حيث قال : ﴿ **مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** ﴾[6] .

---

(١) الحجر (١٥/٤٢)

(٢) ص (٣٨/٨٢ ، ٨٣) .

(٣) الحج (٢٢/٢٦) .

(٤) الأعراف (٧/٧٣)

(٥) الجن (٧٢/١٩) .

(٦) النور (٢٤/٣٥)

والجواب من وجوه :

الأول : ان البيت اذا كـان فيه سـراج لم يتجاسـر اللص عـلى دخـولـه ، مخـافـة أن يفتضـح ، وكـذا القلب ، اذا كـان فيـه سـراج المعـرفـة لم يتجـاسـر الشيطان على دخوله مخافة أن يفتضح .

الثاني : ان البيت اذا كان فيـه سراج اهتـدى صاحبـه الى طلب الأمتعة ، فكذلك القلب اذا كان فيه سـراج المعرفـة ، استدل صـاحبه بـه الى المشروع في الطاعات .

الثـالث : اذا كان في البيت سـراج انتفع بضيـائـه كـل أحـد من غـير أن ينقص من استضـاءة صاحبـه بنوره [شيئـاً] . وكذا كـل قلب كان فيـه سـراج المعرفة انتفع بنوره غير صاحبه ، من غير أن ينقص من نور صاحبه شيء .

الرابع : أن السراج اذا كان في البيت ، وكـان موضـوعاً في كـوة مسدودة بزجاجة ، اضاء داخـل البيت وخارجـه ، وكذلـك سراج المعـرفة يضيء القلب وخارج القلب ، حتى يظهر نوره عـلى الأذنين والعينـين واللسان ، فيـظهر فنـون الـطاعات في هـذه الأعضاء ، وإليـه الاشارة بقـوله عليـه [الصلاة و]السـلام : « اللهم اجعـــل في قلبي نـوراً ، وفي سمعي نـــوراً ، وفي بصـري نـــوراً ، وفي عظمي نوراً ، وفي مخي نوراً »[1] .

الخامس : ان البيت اذا كان فيه سراج كـان صاحبـه مستأنسـاً مسروراً ، فـاذا طفىء السراج صـار مستوحشـاً ، فكـذلـك القلب ، مـا دام فيـه سـراج المعرفة ، كان صاحبـه مستأنسـاً مسروراً ، فـاذا فارقـه والعياذ بـالله صار حـزيناً مغموماً ، قال تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديـه يشرح صـدره للإسـلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء** ﴾[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات عن ابن مسعود .

(٢) الأنعام (١٢٥/٦) راجع الطبري (١٠٠/١٢)

السادس : أن جرم السراج صغير ، وضوءه منتشر عن كل جانب ، فكذلك ضوء المعرفة ينتشر من القلب الى جميع الجوانب كما قال الله تعالى : ﴿ **ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾[1] وخصوصاً من الجانب العلوي ، قال الله تعالى : ﴿ **اليه يصعد الكلم الطيب** ﴾[2] .

السؤال الثاني : ما الفرق بين سراج الدنيا الذي هو الشمس وبين سراج المعرفة ؟

والجواب : الفرق من وجوه :

الأول : ان الشمس تحجبها غمامة ، والمعرفة لا تحجبها سبع سموات .

الثاني : أن الشمس تغيب بالليل ، والمعرفة لا تغيب لا ليلاً ولا نهاراً ، بل هي في الليل آكد ، قال الله تعالى : ﴿ **إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلًا** ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً** ﴾[4] . وقال : ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾[5] .

والثالث : ان الشمس تفنى ، قال الله تعالى : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾[6] . وأما المعرفة فلا تفنى . قال الله تعالى : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾[7] . أي إلا ما حصل برضاه .

الرابع : الشمس تنكشف ، والمعرفة لا تنكشف[8] .

---

(١) البقرة (٢/١١٥)

(٢) فاطر (٣٥/١)

(٣) المزمل (٧٣/١٦)

(٤) الإسراء (١٧/١)

(٥) القدر (٩٧/٣) .

(٦) التكوير (٨١/١)

(٧) القصص (٢٨/٨٨) .

(٨) ولكنها تنكشف عن القلوب الشهوانية التي تطغى عليها الشهوة فتفسد عليها ما أراد المنهج لها من الخير والفضل والسعادة .

الخامس : الشمس تسود الأشياء والمعرفة تبيضها .

السادس : الشمس تحرق ، والمعرفة تنجي من الحرق .

السابع : الشمس تارة تضروتارة تنفع ، والمعرفة تنفع ولا تضر البتة .

الثامن : الشمس منفعتها في الدنيا ، والمعرفة منفعتها في الدنيا والآخرة .

التاسع : الشمس في السماء زينة لأهل الأرض ، والمعرفة زينة لأهل السماء .

العاشر : الشمس في الفوق ، وهي تضيء ما تحتها ، والمعرفة في قلب المؤمن ، وهو في التحت ، وهي تضيء ما فوقها .

الحادي عشر : بالشمس ينكشف وجود الخلق[1] ، وبالمعرفة ينكشف وجود الخالق . والدليل عليه قول أمير المؤمنين علي حين قيل له : هل رأيت ربك ؟ فقال : لا أعبد رباً لم أره .

الثاني عشر : الشمس تقع على العدو والولي ، والمعرفة ليست إلا للولي .

الثالث عشر : ولاية الشمس في الدنيا دون الآخرة ، أما المعرفة فإنها في الدنيا بداية ، وفي الآخرة ذات ولاية .

وأيضاً فإن الكوكب مصباح الخلق والمعرفة مصباح الحق[2]

وأيضاً فإن الكواكب تطلع من خزانة الفلك ، والمعرفة تطلع من خزانة الملك .

وأيضاً فإن الكواكب علامة ، والمعرفة كرامة .

(١) وهي كذلك تنطق عن اعجاز الخالق جل شأنه .

(٢) لعل هذا التكرار من الناسخ .

وأيضاً فإن الكواكب موضع نظر المخلوقين ، والمعرفة موضع نظر رب العالمين . قال عليه السلام : « ان الله لا ينظر الى صوركم ولا أموالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم »[1] .

السؤال الثالث : ما الفرق بين السراج والمعرفة ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن سراج الدنيا مشوب نوره بالظلمة ، وهي الدخان الذي يعلوه ، وسراج المعرفة نوره صاف ، لا ظلمة معه .

الثاني : ان سراج الدنيا يحرق نفسه لينتفع به غيره ، وسراج المعرفة يحرق الذنب ، ويروح السر ، وينور الصدر .

الثالث : ان سراج الدنيا يضمحل من نور الشمس ، وأما سراج المعرفة والتوحيد فإنه يضمحل نور الشمس في نوره .

الرابع : ان سراج الدنيا لا وفاء له ، يحرق من أوقده ، ومن أمده بالفتيل ، كما يحرق من لم يوقده ولم يمده بالفتيل ، وسراج المعرفة ذو وفاء ، لا يحرق صاحبه البتة ، بل ينجيه من الحرق ، فشتان ما بين السراجين .

السؤال الرابع : ما الحكمة في تشبيه المعرفة بالمصباح ؟

الجواب من وجوه :

الأول : ان المصباح تضره الرياح ، والمعرفة يضرها الوسواس والشبهات .

الثاني : ان المصباح لا يبقى بغير الدهن ، والمعرفة لا تبقى بغير التوفيق .

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني وأبو يعلى عن عمران بن الحصين . وذلك لأن القلوب هي مستقر النيات ولا ثواب إلا بالنية ونية المرء خيرٌ من عمله .

الثالث : لا بد للمصباح من حافظ يتعهده ، ولا بد لمصباح المعرفة من متعهد وهو فضل الله ورحمته .

السؤال الخامس : ما الحكمة في تشبيه القلب بالزجاجة ؟

الجواب من وجوه :

الأول : ان الذهب والفضة وإن كانا نفيسين رفيعين إلا أنهما كثيفان ، يوقعان الحجاب ، والزجاجة وإن كانت قليلة القيمة إلا أنها لطيفة صافية لا توقع الحجاب ، فإنه يرى ظاهرها من باطنها وبالضد ، والله تعالى ذكر هذا المثل لرفع الحجاب لا لوضعه .

الثاني : انه ليس لآنية الزجاجة خطر ، إنما الخطر في الآنية ، فكذا ليس لقلبك خطر ، إنما الخطر للإيمان .

الثالث : اذا انكسرت الزجاجة لم تصلح[1] . إلا بإدخال النار والإذابة ، وكذا القلب ، إذا فسد لم يصلح إلا بإدخال النار والإذابة ﴿ **وان منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً . ثم ننجي الذين اتقوا** ﴾[2]

الرابع : ان صاحب الذهب والفضة لا يخاف كسرها لعلمه أن قيمتها لا تبطل بسبب الإنكسار ، وأما صاحب الزجاجة فإنه على حذر ووجل ، لعلمه بأنها إذا أنكسرت بطلت قيمتها ، فكذلك المؤمن ينبغي أن يكون على حذر ووجل كصاحب الزجاجة ، ولا يكون على أمن كصاحب الذهب والفضة .

الخامس : شبهه بالزجاجة لأن النور من الزجاجة أحسن وأتم ضياء منه في الذهب والفضة . والزجاجة لقلة قيمتها ، واستعدادها للانكسار والبطلان

---

(١) لم تنصلح (ج)

(٢) مريم (١٩/ ٧٠ ، ٧١) . راجع تفسير البيضاوي (١٩/٢) إذ يقول إن الورود عليها معناه الجثو حواليها ، وقال العلماء في تأويل الورود أقوالاً كثيرة ، راجع الفخر الرازي الكبير (٢٤١/٢١) .

صار النور فيها أحسن ، وهو اشارة الى قوله : « أنا عند المنكسرة قلوبهم »[1] .

السؤال السادس : ما الحكمة في تشبيه الزجاجة بالكوكب الدري ؟

الجواب من وجوه :

الأول : ان الكوكب الدري فيه لأهل الأرض هداية كما قال تعالى : ﴿ **وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون** ﴾[2] . ولأهل السماء زينة ، قال تعالى : ﴿ **أنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب** ﴾[3] . وكذلك [قلب] المؤمن ، سبب لهداية صاحبه الى الخيرات ، وأيضاً نزهة لأهل السماء ، فإنه روي أن معرفة العارف تضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدري لأهل الأرض .

الثاني : الكوكب لا قدرة للشياطين عليه ، بل الكوكب يحرق الشياطين ، قال الله تعالى : ﴿ **وجعلناها رجوماً للشياطين** ﴾[4] . فكذلك قلب المؤمن لا سبيل للشياطين عليه ، بل نور قلبه وإيمانه يحرق الشياطين ، ولذلك قال : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾[5] . وقال : ﴿ **الذي يوسوس في صدور الناس** ﴾[6] . . ولم يقل : في قلوب الناس . وقال : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[7] . فذلك التذكر هو ظهور نور الإيمان . وقوله : ﴿ **فإذا هم مبصرون** ﴾ اشارة الى احتراق وساوس الشياطين .

السؤال السابع : ما الحكمة في أنه شبه القلب بالكوكب لا بالشمس والقمر ؟

---

(١) لعل هذا من قول بعض المتصوفة فلم أعثر عليه في مصدر من مصادر الحديث الوثيقة .

(٢) النحل (١٦/١٦) .

(٣) الصافات (٦/٣٧) .

(٤) الملك (٥/٦٧) .

(٥) الحجر (٤٢/١٥) .

(٦) الناس (٥/١١٤) .

(٧) الأعراف (٢٠١/٧) .

الجواب من وجوه :

الأول : ان الكوكب مستتر بالنهار ويظهر بالليل ، والعارف مستور بالنهار ، فإذا أظلم الليل ظهر بالخدمة والتضرع .

الثاني : ان الكوكب زينة السماء ، والقلب زينة العارف .

الثالث : ان الكواكب مصابيح السماء : ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾[(1)] . والقلب مصباح العارف ، قال تعالى : ﴿ **كمشكاة فيها مصباح** ﴾[(2)]

السؤال الثامن : هل في تشبيه الإيمان بالسراج بشارة لأهل الإيمان ؟ .

الجواب من وجوه :

الأول : إن الشمس سراج استوقده الله تعالى للبقاء ، فكيف يقدر إبليس على إطفائه ؟

الثاني : استوقد الله تعالى سراج الشمس في السماء ، فهي تزيل الظلمة عن بيتك ، فاذا استوقد شمس المعرفة في قلبك كيف لا تزول ظلمة المعصية عنك مع شدة القرب ؟

الثالث : من استوقد سراجاً فعليه تعهده ، والله هو الموقد لسراج المعرفة ، قال الله تعالى :﴿ **كتب في قلوبهم الإيمان** ﴾[(3)] . فلا جرم أوجب على رحمته امداده وتعهده ، وعواطف تعهده عاطفة حافظة ، كما قال تعالى : ﴿ **انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[(4)] .

---

(١) الملك (٥/٦٧) .

(٢) النور (٣٥/٢٤)

(٣) المجادلة (٢٢/٥٨)

(٤) الحجر (٩/١٥) .

الرابع : اللص إذا رأى السراج في البيت مستوقداً لا يقصد ذلك ، البيت بالسرقة ، والله تعالى أوقد سراج المعرفة في قلبك ، فكيف يقدر لص الشيطان من القرب منك ؟[1] .

الخامس : المجوس أوقدوا ناراً ولا يريدون أطفاءها ، والملك القدوس أوقد نار المعرفة والمحبة في قلبك ، فكيف يرضى باطفائها وإبطالها .

السادس : من أراد أن يستوقد سراجاً احتاج إلى سبعة أشياء الى زناد ، وحجر ، وحراق ، وكبريت ، ومسرجة ، وفتيل، ودهن . والعبد إذا طلب أن يوقد[2] سراج المعرفة فلا بد من زناد الجهد ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾[3] وحجر التضرع ﴿ **ادعوا ربكم تضرعاً وخفيةً** ﴾[4] . وأما الحراق فهو إحراق النفس بمنعها من شهواتها قال تعالى : ﴿ **ونهى النفس عن الهوى** ﴾[5] . والرابع كبريت الانابة ﴿ **وأنيبوا الى ربكم** ﴾[6] . والخامس : مسرجة الصبر ﴿ **واصبروا ، ان الله مع الصابرين** ﴾[7] . والسادس : فتيل الشكر ﴿ **واشكروا نعمة الله ان كنتم إياه تعبدون** ﴾[8] . والسابع دهن الرضاء بقضاء ربك ، قال تعالى : ﴿ **واصبر لحكم ربك** ﴾[9] . وقال عليه السلام : « الرضا بالقضاء باب الله الأعظم »[10] . فهذه الحرفة متعلقة بك

---

(١) ولا سلطان للشيطان على المؤمن القوي اليقين بربه ، قال تعالى : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ ص (٨٣/٣٨) . وقال ايضاً : ﴿ **ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ [الحجر ١٥/ ٤٠]

(٢) أن يوجد (ج)

(٣) العنكبوت (٦٩/٢٩) .

(٤) الأعراف (٧/ ٥٥).

(٥) النازعات (٤٠/٧٩)

(٦) الزمر (٥٤/٣٩)

(٧) الأنفال (٤٦/٨)

(٨) النحل (١١٤/١٦)

(٩) الطور (٤٨/٥٢).

(١٠) لعله منسوب له ﷺ فليس له مصدر معروف .

في حفظ عهد العبودية وإذا وفيت بعهد العبودية فهو أولى أن يفي بعهد الربوبية كما قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾[1] فتحفظ هذه المعرفة في قلبك ، وهذا الذكر في لسانك واجعلها نوراً باقياً معك في القبر والظلمات والقيامة .

النوع الثالث

من الأمور التي شبه الله تعالى الإيمان بها : التراب . قال تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾[2] .

ووجه المشابهة الأول : ان التراب ذو أمانة، من أودع فيه شيئاً سلم اليه أضعافاً ، قال الله تعالى : ﴿في كل سنبلة مائة حبة ﴾[3] . فكذا المؤمن اذا عمل عملاً سلم اليه أضعاف ذلك العمل يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[4] .

الثاني : من خاصية الأرض انها يطرح عليها كل قبيح ، ويخرج منها كل مليح ، فكذا أرض الإيمان ، تطرح عليها قبائح الكفر والذنوب ، ثم تخرج منها ثمرات المغفرة والرحمة والرضوان : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾[5] .

والثالث : من خاصية الأرض انها كالأم الحاضنة لك ، فهي كالمهد ، قال الله تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾[6] . وكالخزانة لك ﴿ خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾[7] . وكالأم المشفقة عليك ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[8] . فكذا الايمان . منه تحصل جميع منافعك في الدنيا والعقبى .

* * *

(١) البقرة (٢/ ٤٠)
(٢) الأعراف (٧/ ٥٨)
(٣) البقرة (٢/ ٢٦١)
(٤) الزمر (٣٩/ ١٠)
(٥) الفرقان (٢٥/ ٧٠)
(٦) النبأ (٧٨/ ٦٠) .
(٧) البقرة (٢/ ٢٩)
(٨) طه (٢٠/ ٥٥) .

النوع الرابع :

من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الايمان والقرآن : الماء . قال الله تعالى : ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾[1] . أي الإيمان والكفر . فالزبد الكفر ، والإيمان الماء . وفي تقرير وجه المشابهة وجوه .

الأول : الماء يزيل النجاسة عن الثوب : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء طهوراً** ﴾[2] . ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾[3] . فكذلك الإيمان يزيل نجاسة الكفر والمعصية عن القلب ، قال عليه [الصلاة و]السلام : « الاسلام يجب ما قبله » .

الثاني : أن الله تعالى سمى الماء المنزل من السماء رحمة ، فقال : ﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته** ﴾[4] . وسمى القرآن فقال : ﴿ **وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾[5] . وجعل الإيمان رحمة وسبباً للرحمة فقال : ﴿ **كتب في قلوبهم الإيمان** ﴾[6] . وقال : ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾[7] . فلا جرم شبه القرآن والإيمان بالماء لهذا السبب .

الثالث : ان الله تعالى سمى القرآن مباركاً فقال : ﴿ **وهذا ذكر مبارك أنزلناه** ﴾[8] . وقال في الماء : ﴿ **ونزلنا من السماء ماء مباركاً** ﴾[9] . فلا جرم شبه الإيمان وكذا القرآن بالماء لكون كل منهما مباركاً .

---

(١) الرعد (١٣/١٧) .
(٢) الفرقان (٢٥/٤٨) .
(٣) المدثر (٧٤/٤)
(٤) الأعراف (٧/٥٧)
(٥) يونس (١٠/٥٧)
(٦) المجادلة (٥٨/٢٢)
(٧) الأنعام (٦/٥٤)
(٨) الأنبياء (٢١/٥٠)
(٩) ق (٥٠/٩) .

الرابع : ان الماء شفاء للنفوس ، والقرآن شفاء للقلوب ، قال الله تعالى : ﴿ **ونننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾[1] . فهو شفاء لقلوبهم ، ورحمة لذنوبهم .

الخامس : كما أنه تعالى هو الذي أنزل الماء من السماء ، فلا يقدر عليه أحد سواه .

السادس : كما ان الله تعالى إذا أنزل المطر من السماء لم يقدر أحد على دفعه ، فكذلك لما أنزل القرآن من السماء لم يقدر أحد على دفعه ، وادخال الباطل عليه : ﴿ **وإنه كتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[2] .

السابع : ان المطر لا يقدر مخلوق أن يحصي عدد قطراته ، فكذا القرآن لا يحيط أحد بكمال أسراره ، ولطائف حقائقه .

الثامن : كما أن المطر ينزل من السماء قطرة قطرة ، ثم يسيل في الأرض نهراً نهراً ، وبحراً بحراً ، فكذلك القرآن ، ينزل من السماء آية آية ، ونجماً نجماً ، ثم صار المجموع أنهاراً وبحاراً . وفي الخبر : ان القرآن بحر عميق لا يدرك قعره .

التاسع : كما أن المطر لو نزل من السماء دفعة واحدة لاقتلع الأشجار وخرب الديار ، وكان الفساد فيه أكثر من الصلاح ، فكذا القرآن لو نزل جملة واحدة ، لضلت فيه الأفهام ، وتاهت فيه الأوهام ، قال الله تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾[3] .

العاشر : كما أن الله تعالى يحيي الأرض بعد موتها بالمطر ، فكذلك أحيا القلوب الميتة بالقرآن . قال الله تعالى : ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه** ﴾[4] .

---

(١) الإسراء (٨٢/١٧)

(٢) فصلت (٤١/٤١ ، ٤٢)

(٣) الحشر (٢١/٥٩) .

(٤) الأنعام (١٢٢/٦) .

الحادي عشر : كما أن المطر الواحد يقع على الأرض فيخرج منه الورد والريحان ، وعلى ارض أخرى فيخرج منه الشوك والسم ، فكذا القرآن ، يقع على قلب المؤمن المطيع فيخرج منه ورد العبودية ، وريحان الطاعة ، ويقع على قلب الكافر ، فيخرج منه سم الكفر ، وشوك المعصية . قال الله تعالى : ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾[1] .

الثاني عشر : إن في الماء النازل من السماء غنية عن جميع المياه ، فكذلك في القرآن غنية عن جميع الكتب والعلوم .

الثالث عشر : ان الماء الكثير إذا انغمس فيه من لا يحسن السباحة هلك ، فكذلك القرآن ، إذا تكلم فيه واحد بغير علم . قال عليه [الصلاة و]السلام : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »[2] .

الرابع عشر : كما أن الشرب فوق الكفاية يضر ولا ينفع ، فكذلك الكلام في القرآن فوق الفهم والفطنة يضر ولا ينفع . قال عليه [الصلاة و]السلام : « أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم »[3] .

الخامس عشر : إذا نزل المطر زال القحط ، وظهر النبات والغذاء والفواكه ، فكذلك كان قبل نزول القرآن قحط الدين ، فلما نزل القرآن زال القحط في الدين ، وظهرت أنواع الغذاء والفواكه للروح ، وهو بيان التوحيد والنبوة والشرائع .

السادس عشر : كما ان الماء يطفىء النار ، فكذلك الإيمان والقرآن يطفئان عن المؤمن الذي هو حامل القرآن والإيمان نار جهنم[4] .

---

(١) البقرة (٢٦/٢) .

(٢) أخرج الحديث الإمام مسلم عن ابن عمر .

(٣) أخرجه ابن ماجة والترمذي .

(٤) وهذا من قبيل الشفاعة اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا اللهم شفعه فينا .

النوع الخامس

من الأشيـاء التي شبـه الله بهـا الإيمـان : الحبـل . قـال الله تعـالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾[1] . ووجه المشابهة من وجوه :

الأول : ان من أراد أن يصعـد من الأسفـل الى العـلو ، وخـاف من الانزلاق ، فإذا تمسك بحبل أمن من ذلـك الخوف ، فـالعبد إذا أراد أن يصعـد من سفـل البشريـة الى عالم الجـلال والكبريـاء ، وخاف ان ينـزلق قـدم عقله ، فإذا تمسك بالقرآن أمن منه .

الثـاني : ان الأعمى إذا أراد الذهـاب الى موضـع ، فإن كـان بين مكـانه وبين ذلك المـوضع حبـل ممدود ، وتمسـك بذلـك الحبل ذهب فـارغاً ، من كـل خوف ، فكذلك العقول البشرية كـالأعمى في سلوك سبيل التـوحيد والمعـرفة ، فإذا تمسكت بالقرآن أمنت من الخوف .

الثـالث : أن من سقط في البئر فـطريق تخليصه أن يـرسـل اليـه حبـل ، حتى يتعلق به ويصعد ، وينجـومن المهالـك ، فالأرواح البشـرية وقعت في هـاوية عـالم الأجسام[2] ، فـالملك الرحيم أرسـل اليهـا حبـل القـرآن ، فمن تعلق بـه وصعد نجا ، ومن لم يتعلق به ففي بئر الظلمات وقع وكان من الهالكين .

* * *

النوع السادس

من الأشياء التي شبه الله تعـالى بها الايمـان : شجرة الـزيتون . قـال الله تعالى : ﴿ وشجرة تخرج من طور سينـاء تنبت بالـدهن وصبغ لـلآكلين ﴾[3] .

---

(١) آل عمران (٣/١٠٣)

(٢) نتيجة الشهوات المتحكمة فيها المسيرة لها .

(٣) المؤمنون (٢٣/٢٠) .

وذكروا في وجه التشبيه أمرين :

الأول : أنه تعالى إنما شبه الإيمان بهذه الشجرة ، لأن هذه الشجرة في اكثر الأمور انما تنبت في الأمكنة المطهرة ، فكذلك المعرفة لا تستقر في كل قلب ، بل في القلوب المطهرة .

الثاني : ان شجرة الزيتون يتولد من ثمرتها ذلك الدهن الذي هو في غاية الصفاء ، فكذلك قلب المؤمن يتولد منه الإيمان والمعرفة ، وهما أصفى الأنوار وأشرفها .

***

تكريم المؤمنين

واعلم ان الله قد وعد المؤمنين بعشر كرامات :

أولاها : المغفرة . قال الله تعالى : ﴿ **قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف** ﴾[1] . والمعنى : إن قبلوا الإيمان ، وتركوا الكفر .

وثانيتها : الأمن ، قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾[2] .

وثالثتها : الهداية . قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾[3] .

ورابعتها : الزيادة . قال تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾[4] .

وخامستها: الفلاح . قال تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾[5] .

وسادستها : الثبات . قال الله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾[6] .

---

(١) الأنفال (٣٨/٨)

(٢) الأنعام (٨٢/٦)

(٣) يونس (٩/١٠)

(٤) يونس (٢٦/١٠)

(٥) المؤمنون (١/٢٣)

(٦) ابراهيم (١٤/ ٢٧) .

وسابعتها : الشفاعة . قال تعالى : ﴿ يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾[1] . يعني قول لا إله إلا الله .

وثامنتها : اصلاح الأعمال . قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾[2] . الى قوله : ﴿ يصلح لكم أعمالكم ﴾[3] .

وتاسعتها : البشرى . قال تعالى : ﴿ وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾[4] .

وعاشرتها : كلام الله تعالى ورؤيته يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾[5] . وقال : ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة . الى ربها ناظرة ﴾[6] .

---

(١) طه (١٠٩/٢٠)

(٢) الأحزاب (٧٠/٣٣) .

(٣) الأحزاب (٧١/٣٣)

(٤) فصلت (٣٠/٤١) .

(٥) يس (٥٨/٣٦) .

(٦) القيامة (٢٢/٧٥ ، ٢٣) راجع تفسير الطبري (١٢٠/٢٩) وابن كثير (/٥٧٦) .

الفصل الخامس

في

شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إله إلا الله وهي وجوه

البحث الأول

زعم جماعة من النحويين أن هذا الكلام فيه حذف واضمار . ثم ذكروا فيه وجهين : احدهما : التقدير : لا إله لنا إلا الله . والثاني : لا إله في الوجود إلا الله . . واعلم ان هذا الكلام غير سديد لوجوه :

أما الأول : فلأنه لو كان التقدير : لا إله لنا إلا الله ، لم يكن هذا الكلام يفيد التوحيد الحق ، إذ يحتمل أن يقال : هب أنه لا إله لنا إلا الله ، فلم قلتم : أنه لا إله لجميع المحدثات الممكنات إلا الله ؟ ولهذا السبب فإنه تعالى لما قال : ﴿ **والهكم إله واحد** ﴾[1] . قال بعده : ﴿ **لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾[1] . لأنه لما قال : ﴿ **وإلهكم إله واحد** ﴾ بقي للسائل أن يسأل ويقول : هب أن الهنا واحد ، فلم قلتم أن إله الكل واحد ؟ فلأجل ازالة هذا السؤال قال تعالى بعده : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ . ولو كان المراد من قوله ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ أنه لا إله لنا إلا هو كان هذا تكراراً محضاً[2] .

وأما الثاني : فهو قولهم : التقدير : لا إله في الوجود إلا الله . فنقول : وأي امل يحملكم على التزام هذا الاضمار ؟ بل نقول : حمل هذا الكلام على ظاهره أولى من ذلك الاضمار الذي ذكرتم . وذلك لأننا لو ألزمنا ذلك الأضمار كان معناه : لا إله في الوجود إلا هو ، فكان هذا نفياً لوجود

---

(١) البقرة (١٦٣/٢)

(٢) محضاً : صريحاً خالصا .

الإله[1] . أما لو أجرينا الكلام على ظاهره كان هذا نفياً لماهية الإله الثاني . ومعلوم أن نفي الماهية أولى وأقوى من إثبات التوحيد في نفي الوجود ، فثبت ان اجراء الكلام على ظاهره أولى .

فإن قيل : إن نفي الماهية غير معقول ، فإنك إذا قلت : السواد ليس بسواد ، كنت قد حكمت بأن السواد انقلب الى نقيضه ، وصيرورة الشيء عين نقيضه غير معقول . أما إذا قلت : السواد غير موجود كان هذا كلاماً معقولاً ، فلهذا السبب أضمرنا فيه هذا الاضمار .

فالجواب : إن قولكم نفي الماهية غير معقول وباطل[2] . فإنك إذا قلت : السواد ليس بموجود فقد نفيت الوجود ، لكن الوجود من حيث هو وجود ماهية ، فإذن نفيت الماهية المسماة بالوجود ، وإذا كان كذلك صار نفي الماهية أمراً معقولاً ، وإذا عقل ذلك فلم لا يجوز اجراء هذه الكلمة على ظاهرها ، فإنك إذا قلت : السواد ليس بموجود فإنك ما نفيت المأهية ، وما نفيت الوجود أيضاً ، وإنما نفيت موصوفية الماهية بالوجود ، فنقول : موصوفية الماهية بالوجود ، هل هي أمر مغاير للماهية وللوجود أم لا ؟ فإن كانت مغايرة لهما كانت تلك المغايرة ماهية ، فكأن قولنا : السواد ليس بموجود نفياً لتلك الماهية المسماة بالموصوفية ، وحتى يعود الكلام المذكور . وأما إن قلنا : إن موصوفية الماهية بالوجود ليست أمراً مغايراً للماهية وللوجود امتنع توجيه النفي اليها ، وإذا امتنع ذلك بقي النفي متوجهاً اما إلى أي ماهية ، واما إلى الوجود ، وحتى يحصل غرضنا من الماهية يمكن نفيها ، وإذا كان الأمر كذلك صح قولنا : لا إله إلا الله حقاً وصدقاً من غير إضمار .

***

---

(١) وهذه من فلسفة المؤلف التي انتهجها في كل ما عرض عليه وما تعرض له من مسائل وقضايا .

(٢) قلنا : هذا باطل (ج)

البحث الثاني

قال النحويون : قولنا لا إله إلا الله ارتفع لأنه بدل من موضع « لا » مع الاسم . وبيانه : إنك إذا قلت : ما جاءني رجل إلا زيد ، فزيد مرفوع بالبدلية ، لأن البدل هو الإعراض عن الأول ، والأخذ بالثاني ، فصار التقدير : ما جاءني إلا زيد . وهذا معقول ، لأنه يفيد نفي المجيء عن الكل إلا عن زيد ، وأما قوله : جاءني القوم إلا زيد ، فههنا البدلية غير ممكنة ، لأنه يصير التقدير : جاءني إلا زيد ، وذلك يقتضي أنه جاءه كل أحد إلا زيداً . وذلك محال ، فظهر الفرق .

***

البحث الثالث

اتفق النحويون على أن محل « الا » في هذه الكلمة محل غير . والتقدير : لا إله غير الله . وهو كقول الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه ... لعمر أبيك إلا الفرقدان

والمعنى : كل أخ غير الفرقدين فإنه يفارقه أخوه . قال الله تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾[1] . قالوا : التقدير : لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا . والذي يدل على صحة ما قلناه : أنه لو حملنا « الا » على الاستثناء لم يكن لا إله إلا الله توحيداً محضاً ، لأنه يصير تقدير الكلام : لا إله يستثنى عنهم الله . فيكون هذا نفياً لآلهة يستثنى عنهم الله ، ولا يكون الآلهة [بحيث] يستثنى عنهم الله ، بل عند من يقول بدليل الخطاب يكون إثباتاً لذلك ، وهو كفر . فثبت أنه لو كانت كلمة « ألا » محمولة على الاستثناء لم

---

(١) الأنبياء (٢١/٢٢) . ووجهة الفساد أنه لو كان ثمة أكثر من إله فإن لكل إله منهجاً وسلوكاً خاصاً به وهو قطعاً لا بد أن يتعارض مع إله آخر ومن ثم يختل التوازن الكوني والانسجام الطبيعي الذي فطر عليه الكون ، فهذا وهم وزعم مرفوض لا يقبله عقل سليم أو فطرة سوية .

يكن قولنا : لا إلـه إلا الله توحيـداً محضاً . ولما اجتمعت العقلاء عـلى انها تفيد التـوحيـد المحض وجب حمـل « ألا » عـلى معنى « غـير » حتى يكـون معنى الكلام : لا إله غير الله .

***

البحث الرابع :

قـال جماعـة من الأصـوليـين : الاستثناء من النفي لا يكـون إثبـاتـاً . احتجوا عليه بحجتـين :

الأولى : ان الاستثنـاء مأخـوذ من قولـك : ثنيت الشيء عن جهتـه ، إذا صـرفتـه عنهـا ، فـإذا قلت : لا عـالم ، فههنـا أمـران : أحـدهمـا الحكم بهـذا العـدم ، والثـاني نفس هـذا العـدم ، ثم إذا قلت عقيبـه : الا زيـد ، فهـذا الاستثنـاء يحتمل أن يكـون عائـداً الى الحكم بذلـك العدم ، ويحتمـل أن يكون عائداً الى نفس ذلك العدم ، فإذا كان عـائداً الى الحكم بـالعدم ، لم يلزم تحقق الثبوت ، لأن سبب الاستثناء يزول بالحكم بالعدم ، وعنـد زوال الحكم بالعـدم يبقى المستثنى مسكوتاً عنه ، غير محكـوم عليه لا بـالنفي ولا بالاثبـات ، وحينئذٍ لا يلزم الثبـوت . أما إن كـان تأثـير الاستثناء في صـرف العدم ومنعـه ، فحينئذٍ يلزم تحـقق الثبوت ، لأنه لما ارتفع العـدم وجب حصول الـوجود ، ضـرورة انه لا واسـطة بين النقيضـين . وإذا ثبت هـذا فنقـول : عـود الاستثنـاء الى الحكم بالعدم أولى من عـوده الى نفس العدم ، وهـذا يدل عليـه وجهان : **الأول** : أن الألفـاظ وضعت دالة عـلى الأحكام الـذهنية ، لا عـلى الموجـودات الخارجيـة ، فـإنك إذا قلت : العـالم قديم ، فهـذا يدل عـلى كون العـالم قـديمـاً في نفسـه ، ولكن إذا قلنا : العالم حـادث ، لزم كـون العالم قـديماً وحـادثاً ، وذلـك محال ، بـل هذا الكـلام يدل عـلى حكمك بقـدم العـالم . وإذا كـانت الألفـاظ وضعت دالـة على الأحكـام الذهنيـة لا عـلى المـوجـودات الخـارجيـة كـان صـرف ذلـك الاستثنـاء الى الحكم بالعـدم أولى من صرفـه الى نفس ذلـك العـدم . والـوجـه

الثاني في بيان عود الاستثناء الى الحكم بالعدم أولى من عوده الى نفس ذلك العدم ، وذلك لأن عدم الشيء في نفسه ووجوده لا يقبل تصرف هذا القائل ، بل القابل لتصرفه هو حكمه بذلك الوجود والعدم ، وإذا كان كذلك كان عود الاستثناء الى الحكم أولى من عوده الى المحكوم به .

الحجة الثانية : في بيان كون الاستثناء من النفي ليس بإثبات هي انه جاء في الحديث والعرف صور كثيرة للاستثناء مع أنه لا يقتضي الثبوت . قال عليه [الصلاة و]السلام : « لا نكاح إلا بولي »[1] . و « لا صلاة إلا بطهور » . ويقال في العرف : لا عز إلا بالمال ، ولا مال إلا بالرجال . ومرادهم من الكل مجرد الاشتراط . اقصى ما في الباب ان يقال : قد ورد هذا اللفظ في صورة أخرى ، وكان المراد أن يكون المستثنى من النفي اثباتاً ، لأنا نقول : انه لا بد وأن يكون مجازاً في إحدى الصورتين ، إلا أنا نقول : إذا قلنا : انه لا يقتضي أن يكون الخارج من النفي إثباتاً ، بحيث أفاد ذلك ، احتمل أن تكون تلك الزيادة مستفادة من دليل اخر ، ولا يكون ذلك تركاً لما دل اللفظ عليه ، فإن قلنا : أنه يقتضي ان يكون الخارج من النفي اثباتاً بحيث لا يفيد ذلك ، لزمنا ترك العمل بما يكون اللفظ دليلاً عليه ، ومعلوم أن الأول أولى ، لأن أثبات الأمر الزائد بدليل زائد ليس فيه مخالفة الدليل ، أما ترك ما دليل عليه يكون مخالفاً للدليل فثبت بما ذكرنا أن الاستثناء من النفي لا يكون أثباتاً . فإذا ثبت هذا كان قولنا « لا إله إلا الله » تصريحاً بنفي سائر الآلهة ، ولا يكون اعترافاً بوجود الله . واذا كان كذلك لم يكن مجرد هذا القول كافياً في صحة الإيمان .

وههنا اشكال آخر ، وهو اننا قد دللنا على أن « الا » بمعنى غير في هذا الموضع ، وإذا كان كذلك كان قولنا « لا إله إلا الله » معناه : لا إله غير الله . فيصير المعنى نفي اله يغاير الله ، ولا يلزم من نفي ما يغاير الشيء اثبات هذا . وحينئذٍ يعود الاشكال .

---

(1) قال عليه الصلاة والسلام (لا نكاح إلا بولي) فليس معنى هذا أن وجود الولي يحتم إتمام النكاح فقد يحضر الولي ولا ينعقد النكاح ولا يتم .

والجواب من وجهين : **الأول** : ان اثبات الإله سبحانه كان متفقاً عليه بين سائر العقلاء بدليل قوله : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، ليقولن الله** ﴾[1] . فكان ذلك مفروغاً عنه ، متفقاً عليه ، إلا أنهم كانوا يثبتون الشركاء والأنداد ، فكان المقصود من هذه الكلمة نفي الأضداد والأنداد ، فأما القول بإثبات الإله للعالم فذلك من لوازم العقول . . الثاني : إذا سلمنا أن هذه الكلمة كما دلت على نفي سائر الآلهة دلت على اثبات إلهية الله تعالى ، إلا أنا نقول : هذه الدلالة تكون حاصلة بوضع الشرع لا بمفهوم أصل اللغة . فهذا تمام القول في هذا المقام .

* * *

البحث الخامس

اعلم انه يجوز أن يقال : لا رجل في الدار ، وأن يقال : لا رجل إلا في الدار . أما على الوجه الأول فإنه يوجب نفي الرجال بالكلية ، والدليل عليه أن قولنا : « لا رجل » يقتضي نفي ماهية الرجل ، ونفي الماهية يقتضي انتفاء كل أفراد الماهية ، لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبتت الماهية ضرورة أنه متى ثبت فرد من أفراد الماهية فقد ثبتت الماهية لا محالة . وأما قولنا : « لا رجل إلا في الدار » . فهو نقيض قولنا « لا رجل في الدار » ولكن قولنا : لا رجل إلا في الدار يفيد ثبوت رجل واحد ، فقولنا لا رجل في الدار وجب أن يفيد عموم النفي ، حتى يتحقق التناقض بين القولين .

والحاصل أن قولنا « لا رجل » أقوى في الدلالة على عموم النفي من قولنا : « لا رجل » مع أن كل واحد منهما يفيد عموم النفي ، ولأجل أن كل واحد منهما يفيد العموم قرىء ﴿ **لا ريب فيه** ﴾[2] . بالقراءتين ، وكذا قوله : ﴿ **فلا رفث ولا فسوق ولا جدال** ﴾[3] . ولأجل أن البناء على الفتح أقوى في الدلالة على العموم اتفقوا عليه فى قولنا : « لا إله إلا الله » .

---

(١) لقمان (٢٥/٣١) والزمر (٣٨/٣٩) .　　البقرة (١٩٧/٢) .

(٢) البقرة (٢/٢)

البحث السادس

من النـاس من يقـول : ان تصـور الاثبـات مقـدم عـلى تصـور النفي ، بـدليل ان الـواحد منـا يمكنه أن يتصـور الاثبات وإن لم يخـطر ببالـه معنى النفي والعـدم ، ويمتنع عليـه أن يتصور العـدم والنفي إلا وقد تصـور أولاً الاثبـات ، وذلـك لأن العدم المـطلق غير معقـول ، بـل العـدم لا يعقـل إلا إذا أُضيف إلى معـين ، فيقال : عـدم الدار ، وعـدم الغلام ، فثبت أن تصـور الاثبات أصـل ومتقـدم ، وتصور النفي متـأخر وفـرع . وإذا ثبت هذا فـما السبب في ان جعـل النفي الذي هو الفرع متقدماً ، والإثبات الذي هو الأصل مؤخراً ؟

والجواب : ان في تقديم النفي ههنا على الاثبات أغراضاً :

الأول : ان نفي الـربوبيـة عن غيـره ثم إثبـاتهـا لـه آكد في الإثبـات من اثباتها له من غير نفيها عن غيره ، كـما أن قول القـائل : ليس في البلد عـالم غير فلان أقوى في باب المدح من قولنا : فلان عالم البلد .

الثاني : أن لكل انسـان قلباً واحـداً ، والقلب الواحـد لا يتسع بـاشتغال شيئـين دفعة واحـدة ، فبقدر مـا يبقى مشغولاً بـأحد الشيئـين يبقى محرومـاً من الشيء الثـاني ، فقـولنـا : « لا إلـه إلا الله » إخـــراج لكـل مـــا سـوى الله عن القلب ، حتى إذا صـار القلب خـاليـاً عن كـل مـا سـوى الله ، ثم خـــطر فيـه سلطان الله ، أشرق نوره اشراقاً تاماً ، وكمل استيلاؤه عليه كمالاً قوياً .

الثـالث : أن النهي الحاصـل بـ « لا » يجري مجـرى الطهـارة ، والاثبـات الحاصل بـ « الا » يجري مجرى الطهارة والصلاة ، فكما أن الـطهارة مقـدمة عـلى الصـلاة ، فكذا وجب تقـديم (لا إله) عـلى قولنـا (إلا الله) ، ويجري مجـرى تقديم الاستعاذة عـلى القراءة ، فكـما أن الاستعاذة مقـدمة عـلى قراءة القـرآن ، فكذا هذا .

وأيضاً : ان من أراد أن يحضر الملك في بيت وجب عليـه أن يقدم تـطهير ذلـك البيت عن الأقـذار ، فكـذا هنـا . وعن هـذا قـال المحققـون : النصف

الأول من هـذه الكلمة تنـظيف الأسرار ، والنصف الثاني جلالـة الأنـوار[1] . عن حضـرة الملك الجبـار . . والنصـف الأول انفـصـال ، والنـصف الـثـاني اتصال . . والنصف الأول اشارة الى قـوله : ﴿ ففـروا الى الله ﴾[2] . والنصف الثاني اشارة الى قوله : ﴿ قل الله ، ثم ذرهم ﴾[3] .

* * *

البحث السابع

ان للقـائـل أن يقـول : ان من عـرف أن للعـالم صـانعـاً قـادراً عـالمـاً ، موصوفاً بجميع الصفـات المعتبرة في الإلهيـة ، من الصفات السلبيـة والثبوتيـة ، فقد عرف الله تعالى معرفة تامـة ، ثم أن علمه بعـدم الإله الثـاني لا يزيـده علماً بحقيقة ذات الإله وصفـاته ، لأن عـدم الإله الثـاني ليس عبارة عن وجـود الإله الأول ، ولا [وجود] صفات من صفـاته ، ثم إنـا أجمعنا عـلى أن علمه بـذات الإلـه وصفاتـه لا يكفي في تحقق النجـاة ، بـل مـا لم يعلم عـدم الإلـه الثاني لا يحصـل العلم المعتبر[4] في النجـاة ، فـما السبب في ان كـانت معـرفـة ذات الله تعالى وصفاته غير كافية في تحقق النجـاة ، بل كـان العلم بعدم الثـاني معتبراً في تحقق النجاة ؟

والجواب : أنه بتقدير أن يكـون للعالم إلهـان[5] فالعبـد لا يعلم أنه عبـد

(١) ومعنى هذا (تجلي الأنوار) .

(٢) الذاريات (٥١/ ٥٠) ففـروا الى الله أي الجأوا اليـه . راجع البحـر المحيط (٨/ ٤٢) والقرطبي (١٧/ ٥٣) .

(٣) الأنعام (٦/ ٩١) .

(٤) علم المعتبرة (د) .

(٥) وهذه الوساوس تحدث للمشرك والذي ينفق أوقـاته في اللهـو والمجادلـة بغير علم أو فقـه ، وكثير ممن يخـوضون في هـذه القضايـا الفلسفية يضلون طـريق التوحيـد ويجدون أنفسهم فجـأة في نـطاق الشـرك وبالله الاستعـاذة منه ، وكثيـراً ما حـذرت من اقحام قضـايا الغيب والتـوحيـد في مجـالات الميتافيزيقا وهيهات سامع . المحقق .

لهذا الإله أو عبد لذلك الإله ، أو عبد لهما معاً ، فحينئذٍ لا يكون جازماً بكونه مشتغلاً بشكر مولاه وخالقه ، بل يجوز أن يكون عابداً لغير خالقه ، ومتى كان الأمر كذلك لم يكن جازماً في تلك العبودية ، وتلك الطاعة ، أما إذا عرف أنه لا إله للعالم إلا إله واحد ، فحينئذٍ يكون جازماً بكونه مشتغلاً بعبودية مولاه وخالقه ، فلهذا السبب لم تحصل النجاة والفوز بالدرجات إلا بمعرفة التوحيد .

***

البحث الثامن

ان المكلف إذا تمم النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى ، ثم مات ولم يجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه : لا إله إلا الله ، فههنا لا شك في أنه يموت مؤمناً ، لأنه أدى ما وجب عليه ، ولم يجد مهلة للتلفظ بهذه الكلمة ، فأما إذا تمم النظر والاستدلال في معرفة الله ، ووجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه « لا إله إلا الله » ، ثم لم يقل ، ثم مات ، فهذا الشخص هل مات مؤمناً أم لا ؟

من الناس من قال : انه مات كافراً ، لأن صحة الإيمان متوقفة على التلفظ بهذه الكلمة عند القدرة عليه . ومن الناس من قال : انه مؤمن ، لأجل انه حصل له العرفان التام ، وفاسق لأجل أنه كان مأموراً بذكر هذه الكلمة وما ذكرها . والدليل على أنه مؤمن قوله عليه [الصلاة و]السلام : « يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان »[1] . فهذا الشخص قلبه مملوء من الإيمان ، فكيف لا يخرج من النار ؟

***

البحث التاسع

من الناس من قال : تطويل المدة من كلمة (لا) من قولنا : لا إله

(١) الحديث أخرجه الطبراني .

إلا الله ، مندوب اليه مستحسن ، لأن المكلف في زمان التمديد يستحضر في ذهنه جميع الأضداد والأنداد[1] وينفيها ، ثم بعد ذلك يعقب ذلك بقوله : إلا الله ، فيكون ذلك أقرب الى الإخلاص والكمال .

ومنهم من قال : بل يترك التمديد أولى ، لأنه ربما مات في زمان اللفظ بـ « لا » قبل الانتقال الى كلمة « إلا الله » .

والذي عندي : ان المتلفظ بهذه الكلمة ان كان يتلفظ بها لينتقل من الكفر الى الإيمان فترك التمديد أولى ، حتى يحصل الانتقال من الكفر الى الإيمان على أسرع الوجوه . وإن كان المتلفظ بها مؤمناً ، وإنما يذكرها لتجديد هذه الكلمة ، فالتمديد أولى ، حتى يحصل في زمان التمديد صور الأنداد والأضداد . وعلى التفصيل في الخاطر ، ثم ينفيها ، ويعقبها بقوله (إلا الله) . فيكون الاقرار بالإلهية أصفى وأكمل .

* * *

البحث العاشر

أن الناس في هذه الكلمة على مذاهب[2] . وطبقات :

فأدناها طبقة من قالها ليحقن دمه ، ويحرز ماله ، وعلى ما اقتضاه موجب قوله عليه [الصلاة و]السلام : « أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . وهذه درجة يشترك فيها المخلصون والمنافقون . فكل من تعلق بهذه الكلمة نال من بركتها ، وأحرز حظاً من فوائدها ، فإن طلب بها الدنيا نال الأمن فيها ، والسلامة من آفاتها ، وإن قصد بها الآخرة جمع بين الحظين ، وأحرز بها السعادة في الدارين[3] .

---

(١) الأنداد : الأشباه والنظائر .

(٢) آراء (هامش ج) من نسخة ثانية .

(٣) نحن لنا الظاهر ، والله يتولى السرائر .

والطبقة الثانية : الذين ضموا الى القول باللسان الاعتقاد بالقلب على سبيل التقليد . واعلم ان الاعتقاد لا يكون علماً ، لأن العقد ضد الانحلال والانشراح ، والعلم عبارة عن انشراح الصدر . قال تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام** ﴾[1] . فثبت أن صاحب التقليد لا يكون عالماً ولا عارفاً ، وهل يكون مسلماً ؟ فيه الخلاف المشهور بين الأئمة ، والله أعلم .

الطبقة الثالثة : الذين ضموا إلى الاعتقاد بالقلب معرفة الدلائل الإقناعية القوية لذلك الاعتقاد ، إلا أن تلك الدلائل لا تكون برهانية يقينية ، بل اقناعية ظنية .

الطبقة الرابعة : الذين سلموا واثبتوا تلك العقائد بالدلائل القطعية ، والبراهين اليقينية ، إلا أنهم لا يكونون من أرباب المشاهدات والمكاشفات[2] ، ولا من أصحاب مطالعة الآيات .

ثم اعلم ان الإقرار باللسان درجة واحدة ، وأما الاعتقاد بالقلب فله درجات مختلفة بحسب قوة الاعتقاد وضعفه ، ودوامه وعدم دوامه ، وكثرة تلك الاعتقادات وقلتها ، فإن المقلد ربما كان مقلداً في مجرد أن الله تعالى واحد ، وربما زاد عليه وكان مقلداً في ذلك وفي أن صانع العالم قادر عالم .

واعلم أنه كلما كان وقوف الانسان على هذه المطالب أكثر ، كان تشويش أمر التقليد عليه أكثر ، وذلك لأن الطالب إذا حصل له شعور بهذه المطالب ، وحصل له وقوف على هذه المباحث ، مال الى العلم ، وترك التقليد ، فيعسر عليه التقليد . أما المرتبة الثالثة ، وهي مرتبة تقوية الاعتقاد بالدلائل الاقناعية ، فمراتب الخلق فيها متفاوتة غير مضبوطة . وأما المرتبة الرابعة وهي : الترقي من الدلائل الاقناعية الى البراهين القطعية فالأشخاص الذين يكونون واصلين الى هذه الدرجة يكونون في غاية القلة ، ونهاية

---

(١) الزمر (٢٢/٣٩) راجع تفسير الطبري (١٣٤/٢٣) ومختصر ابن كثير (٢١٧/٣) .

(٢) أرباب المشاهدات والمكاشفات ، أصحابها ويقصد بهم الصوفية .

الندرة ، لأن ذلك يتوقف على معرفة شرائط البراهين ، واستعمالها في المطالب ، وذلك في غاية العزة . وأما المرتبة الخامسة وهي[مرتبة] أهل المشاهدات والمكاشفات فنسبتهم الى اصحاب البراهين القطعية كنسبة اصحاب البراهين القطعية الى عوام الخلق .

واعلم ان عالم المكاشفات لا نهاية[1] له ، لأنه عبارة عن سفر العقل في مقامات الجلال الإلهي ، ومدارج عظمته ، ومنازل كبريائه وقدسه ، وإذا كان لا نهاية لهذه المقامات ، فكذلك لا نهاية للسفر في تلك المقامات .

واعلم ان الإنسان إذا انكشفت له اسرار « لا إله إلا الله » أقبل على الله ، وأخلص في عبادته ، ولم يلتفت الى أحد سواه ، فلا يرجو غيره ، ولا يخاف سواه ، ولا يرى النفع والضراء إلا منه ، فانقطع بالكلية عمن دونه ، وتبرأ من الشرك الباطن ، كما تبرأ من الشرك الظاهر[2] ، وذلك كله موجب كلمة التوحيد .

ولهذا السبب لما قال لمحمد ﷺ : ﴿ فاعلم انه لا إله إلا الله ﴾[3] . قال بعده : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾[4] . والمعنى - والله أعلم - : ان الأمر بالاستغفار لتقصير وقع في موجب كلمة « لا إله إلا الله » . اما لغفلة تحول دونه ، أو لعارض شغل عنه ، وهو معنى قوله عليه [الصلاة و]السلام : « انه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة »[5] . وقد روي « مائة مرة » . وفي الحديث وجوه :

الأول : ان المراد بالغين : ما يغشي قلبه من غفلة ، أو يعرض من

---

(١) وهذا يجعلني أقطع بأن الفخر الرازي كان صوفياً إذ أنه يؤيد ما أضفى الصوفية على أنفسهم من صفات وفيوضات وهي مسائل تعرضت اليها بالتحليل والبحث والدراسة والمناقشة واثبتت مخالفة هذه الأشياء للسنة الصحيحة راجع - إن شئت - كتابنا لماذا يلحدون ؟! المحقق .

(٢) كما قد تبرأ (ج)

(٣) و(٤) محمد (٤٧/ ١٩) .

(٥) أخرجه الترمذي .

فترة[1] ، بحكم الطبع البشري ، فكان عند ذلك يفزع الى الاستغفار .

الثاني : انه كان عليه [الصلاة و]السلام أبداً في الترقي ، فإذا انتقل الى درجة أعلى من الدرجة المنتقل عنها كان يستحقرها في العبودية ، فكان يستغفر الله منها .

الثالث : أنه ربما لاح له شيء من تجلي عالم الغيب ، فيستعظم تلك الدرجة ، ويستبهج بها ، ثم يصير تعاظمه لها ، وابتهاجه بها ، شاغلاً عن الاستغراق في المبتهج به[2] ، فكان يستغفر الله من ذلك .

الرابع : ان كل ما لاح له من عالم الغيب كان يعلم أن الذي لاح له انما لاح له بقدر قوته وطاقته ، وكان يعلم أن قدر عقله وطاقته بالنسبة الى جلال الله وعلو كبريائه كالعدم ، فحينئذٍ يعلم ان الذي لاح له من كمال الغيب بالنسبة الى ما لم يلح له كالعدم بالنسبة الى الوجود ، فكان يستغفر الله من أن يصفه بما يصل اليه قلبه وعقله وفكره وذكره وخاطره .

* * *

(١) وهذه لمحات خاطفة لإثبات بشريته ﷺ وليست دليلاً على غفلة ، فإن رسول الله ﷺ كان نومه الإغفاء وإذا نامت عيناه لم ينم قلبه .

(٢) وقد يدفع ذلك الى الفتنة والله وحده هو العاصم من مزالق الخطأ .

الفصل السادس

في

فضـــل المؤمن

اعلم ان الله سمى المؤمنين ثالث نفسه في عشرة مواضع[1] : في المراقبة ، والولاية ، والموالاة ، والصلاة ، والعزة ، والطاعة ، والمشاقة ، والأذى ، والألتجاء ، والشهادة .

* * *

المقام الأول : في المراقبة

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾[2] . هدد المذنبين برؤية المؤمنين أعمالهم ، كما هددهم برؤية نفسه [ورؤية رسوله] . وفيه لطائف :

الأولى : روي أن عمر رضي الله عنه خرج ليلة ، فسمع امرأة تقول لابنتها : يا ابنتاه ، قومي فامزجي اللبن بالماء . فقالت ابنتها : أوليس قد نهانا عن ذلك أمير المؤمنين ؟ قالت : لا يرانا أمير المؤمنين . قالت : أفلا يرانا رب العالمين ؟ فلما سمع عمر ذلك خطبها في الغد لابنه ، فكان عمر بن عبد العزيز من خير حفدتها .

الثانية : امرأة شاطرة كانت بمكة ، قالت : لا أبرح حتى أفتن طاووس اليماني[3] . ، وكان رجلاً جميلاً ، فعرضت نفسها عليه مراراً حتى ظنت أنها

(١) عشر أشياء (هامش د) من نسخة ثانية .

(٢) التوبة (٩/١٠٥) .

(٣) من تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما وقد توفي سنة ٤٠ هـ .

تعجبه ، فقال طاووس : احضري الليلة ، فجاء بها الى المقام فقال لها : اضطجعي هنا . فقالت : سبحان الله ، ألا يرانا الناس ؟ فقال طاووس : أليس يرانا الله في كل مكان ؟ فتابت .

الثالثة : قال أبو عبد الرحمن العتبي: خرجت ليلة فإذا أنا بجارية جميلة ، فأردتها ، فقالت : ويلك ، أما لك من زاجر من عقل إن لم يكن لك ناهٍ من الدين ؟ فقلت لها : لا يرانا إلا الكواكب . فقالت : وأين مكوكبها ؟

الرابعة : قال حاتم الأصم[1] . : راع نفسك في ثلاثة أوقات : إذا عملت بالجوارح فاذكر نظر الله اليك ، وإذا قلت بلسانك فاذكر سمع الله لك ، وإذا كنت ساكتاً فاذكر علم الله فيك ، لأنه قال : ﴿ **انني معكما أسمع وأرى** ﴾[2] .

الخامسة : ثلاثة أنفار حضروا عند بعض الزهاد ، وقالوا : أوصنا . فقال لواحد : ألست تقول : انه عالم ؟ فقال : بلى : قال : إياك أن يعلم منك شيئاً فيفضحك به غداً . وقال للثاني : اليس هو بصير ؟ قال : بلى . قال : إياك أن يراك على عمل تستحي منه يوم القيامة . وقال للثالث : أليس هو سميع ؟ قال : بلى . قال : احذر أن يسمع منك شيئاً يردك عن باب رحمته بسببه .

السادسة : قال سفيان : من وجد من نفسه ثلاثة أشياء فليحكم عليها بالسعادة : الهيبة للعزيز الجبار ، والحرمة للنبي المختار ، والحياء من الأبرار والأخيار .

* * *

المقام الثاني : الولاية

فإنه تعالى جعل المؤمنين ثالث نفسه فقال : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله**

---

(١) كان رجلاً تقياً ورعاً زاهداً مستجاب الدعوة وقد توفي رحمه الله عام سنة ٢٣٠ هـ .

(٢) طه (٢٠/ ٤٦)

والذين آمنوا ﴾[1] . قيل : نزلت في عبد الله بن سلام حين شكا من عداوة اليهود له بعد إسلامه ، فنزلت . وقال محمد بن إسحاق : نزلت في عبادة بن الصامت ، قال : يا رسول الله ، تبرأت من حلف اليهود ، وتوليت الله ورسوله والمؤمنين عامة ، وفيه نكت :

الأولى : أن يوسف عليه السلام قال : ﴿ أنت وليي في الدنيا والآخرة ﴾[2] . فوجد الملك والعز بسبب ذلك القول الذي هو قائله ، وههنا قال الله تعالى للمؤمنين : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ . فأولى أن يرجو المؤمنون بذلك الجنة والمغفرة .

الثانية : قوله : ﴿ إنما وليكم الله ﴾ يعني حافظكم وناصركم ﴿ ورسوله والذين آمنوا ﴾ . ثم قال عليه [الصلاة و]السلام : « المرء مع من أحب » . ثم أن كل مسلم يحب الله ، فوجب بحكم ذلك الخبر أن يكون المسلم أبداً مع حفظ الله لا يفارقه ، بسبب أنه أحب الله ، فكيف يفارقه حفظ الله مع أن الله وليه وحافظه وناصره ؟

الثالثة : هذه الآية دلت على ان الصحابة يحبوننا ، لأن الله تعالى جعل المؤمنين أولياءنا ، وهو قوله : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ﴾[3] . ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾[4] . ثم أمرنا أن نحب الصحابة بدليل قوله : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار ﴾[5] . فثبت بمجموع هاتين الآيتين حصول المحبة بيننا وبين الصحابة ، والحبيب لا يرضى بعذاب

---

(١) المائدة (٥/٥٥) .

(٢) يوسف (١٢/١٠١) .

(٣) المائدة (٥/٥٥) .

(٤) التوبة (٩/٧١) .

(٥) التوبة (٩/١٠٠) .

حبيبه ، قيل ذلك على أن جمهور الصحابة والتابعين وسلف المؤمنين يكونون شفعاء ذنوب المؤمنين.

* * *

المقام الثالث : الموالاة

قوله تعالى : ﴿ فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ﴾[1] . وههنا نكت :

الأولى : حكم أن مولى المؤمنين هو : الله ، وجبريل ، وصالح المؤمنين ، ثم أسقط شركة جبريل والمؤمنين ، فقال : ﴿ **واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير** ﴾[2] . وقال في حق الكافرين : ﴿ **مأواكم النار ، هي مولاكم** ﴾[3] . ثم قال : ﴿ **وبئس المصير** ﴾[4] . فمن كان الله مولاه فلا يذل ولا يخزى ، ومن كان المؤمنون مولاه فلا يضيع ولا يشقى . قال الكفار لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم أحد : لنا عزى ولا عزى لكم . فقال عمر رضي الله عنه : « لنا مولى ولا مولى لكم » . فنزل على وفق قوله : ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم** ﴾[5] .

الثانية : ان الله تعالى سمى النار مولى الكافرين ، فقال : ﴿ **النار هي مولاكم** ﴾ . وإنما سمى النار مولاهم لأنها لا تترك اعانتهم .

الثالثة : قال بعضهم : من كان ربه مولاه لا يعذب ، ومن كان ناصره مولاه لا يغلب ، ومن كان هاديه مولاه لا يضل ، ومن كان ربه مغنيه لا

---

(١) التحريم (٦٦/٤)
(٢) الحج (٢٢/٧٨)
(٣) الحديد (٥٧/١٥)
(٤) الحديد (٥٧/١٥)
(٥) محمد (٤٧/١١) .

يشقى ، ومن كان ربه مولاه لا يضيع ولا يحتاج إلى أحد .

* * *

المقام الرابع : الصلاة

قال الله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾[1] . فجعل المؤمنين ثالث نفسه في الصلاة على الرسول عليه [الصلاة و]السلام . وههنا نكت :

الأولى : في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه [الصلاة و]السلام : « هنئوني ، هنئوني » . فقالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، فما حظنا ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾[2] . والإشارة : انه صلى على الرسول عليه السلام في الدنيا ، فما ترك المذنبين حتى صلى الله أيضاً عليهم ، فيوم القيامة كيف يترك المذنبين محرومين من المغفرة .

الثانية : الصلاة من الله تعالى على ثلاثة أوجه : عامة ، وخاصة ، وخاصة الخاصة . فالعامة قوله : ﴿ هو الذي يصلي عليكم ﴾ . والخاصة قوله : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ﴾[3] . وخاصة الخاصة قوله : ﴿ ان الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ .

الثالثة : جعل الله أهل بيت النبي عليه [الصلاة و]السلام مساوين له في خمسة أشياء : في المحبة ، قال تعالى : ﴿ فاتبعوني يحببكم الله ﴾[4] . وقال لأهل بيته : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾[5] . والثاني : في تحريم الصدقة . قال عليه [الصلاة و]السلام : « حرمت الصدقة عليَّ

---

(١) الأحزاب (٣٣/٥٦) .

(٢) الأحزاب (٣٣/٤٣) . راجع مختصر ابن كثير (٣/١٠١) .

(٣) البقرة (٢/١٥٧) .

(٤) آل عمران (٣/٣١) .

(٥) الشورى (٤٢/٢٣) .

وعلى آل بيتي » . والثالث في الطهارة قال الله تعالى : ﴿ ما نزلنا عليك القرآن لتشقى . الا تذكرة لمن يخشى ﴾[1] . وقال لأهل بيته : ﴿ ويطهركم تطهيراً ﴾[2]

الرابعة : السلام . قال : ﴿ السلام عليك ايها النبي ﴾. وقال في أهل بيته : ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ [3]

الخامسة : في الصلاة على الرسول وعلى آله كما في آخر التشهد .

* * *

المقام الخامس : العزة

قال الله تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[4] . وههنا نكت :

الأولى : عزة الله عزة الربوبية ، وعزة الرسول عزة النبوة ، وعزة المؤمنين عزة التلفظ بكلمة « لا إله إلا الله » . ثم كما أن عزة الله وعزة رسوله لا يقبلان الذل ، فكذلك عزة المؤمنين لا تقبل الذل .

الثانية : لله عزة الانشاء والتكوين ، قال الله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾[5] . وللرسول عزة الدنيا حين أشار للقمر فأنشق ببركة دعائه ، وللمؤمنين عزة الإيمان والشهادة . ثم أن الأشياء تكونت عند قوله : ﴿ كن ﴾ . والقمر انشق عند دعاء الرسول ، فنرجو أن يحصل الغفران والرحمة للمؤمنين عند كلمة الشهادة .

---

(١) طه (٢٠/٢ ، ٣) .

(٢) الأحزاب (٣٣/٣٣)

(٣) الصافات (٣٧/١٣٠) .

(٤) المنافقون (٦٣/٨) . راجع تفسير القرطبي (١٨/١٢٩) .

(٥) يس (٣٦/٨٢) راجع الطبري (٢٣/٢١) .

الثالثة : عز المؤمن في أن قيده المعرفة ، وصيده الجنة ، وعبده الرؤ ية ، فإذا كان للعبد المؤمن رب كافٍ ، وكتاب شافٍ ، ورسول وافٍ ، اسمه اسم الله ، ولسانه شاهد الله ، ونفسه طالبة مرضاة الله ، وقلبه محل نظر الله ، وسراجه معرفة الله ، وشهادته محبة الله ، وبصيرته مشتاقة الى رؤ ية الله فحقيق[1] أن يكون عزه متصلاً بعز الله .

الرابعة : لله العزة سواء أوجد أو أعدم ، وللرسول بالولاية سواء بلغ أو سكت ، فكذلك المؤمن له العزة سواء أطاع أو عصي .

الخامسة : لله العزة بالولاية ، لقوله : ﴿ إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾[2] . وللرسول بالولاية أيضاً لقوله : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾[3] . وللمؤمنين العزة أيضاً بالولاية لقوله :﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾[4] .

السادسة : لله العزة بالعلو والعظمة ، لقوله :﴿ وهو العلي العظيم ﴾[5] . وللرسول بالرفعة ، لقوله : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾[6] وللمؤمنين بالقبول والرحمة ، لقوله : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾[7] .

والسابعة : لله عزة المعبودية ، لقوله : ﴿ وأنا ربكم فأعبدون ﴾[8] . وللرسول عزة المتبوعية ، لقوله : ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[9] . وللمؤمنين

---

(١) حقيق : جدير به وخليق أن يكون .

(٢) الأعراف (١٩٦/٧) .

(٣) الأحزاب (٣٣) / ٦) .

(٤) التوبة (٧١/٩) .

(٥) البقرة (٢٥٥/٢) .

(٦) الشرح (٤/٩٤) وقال ابن كثير رفعنا لك ذكرك أي أنه يذكر الله سبحانه وتعالى يذكر معه رسوله ﷺ راجع مختصر ابن كثير(٦٥٢/٣) بتصرف والبحر المحيط (٤٨٨/٨) .

(٧) الزمر (٥٣/٣٩) وغفران الذنوب جميعاً هنا لمن تاب منها ورجع عنها وليست لمن أصر عليها . راجع حاشية الصاوي على الجلالين (٣٧٦/٣) .

(٨) الأنبياء (٩٢/٢١)

(٩) الأعراف (١٥٨/٧) .

عزة العبودية ، لقوله : ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[1] .

الثامنة : لله عز الاستغناء : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء ﴾[2] . وللرسول عز الاغناء : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾[3] . وللمؤمنين عز الاغناء : ﴿ وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته ﴾[4]

التاسعة : قال علي رضي الله عنه : من أراد عزاً بغير ذل ، وهيبة بغير سلطان ، وغنى بغير مال ، وحسباً بغير نسب ، فليخرج نفسه من ذل المعصية الى عز الطاعة .

العاشرة : قال هارون الرشيد لمنصور بن عمار : من أعقل الناس ، وأجهلهم ، وأغناهم ، وأعزهم ؟ فقال : أعقلهم محسن خائف ، وأجهلهم مسيء آمن ، وأغناهم القانع ، وأعزهم الأتقياء .

* * *

المقام السادس : الطاعة

قال الله تعالى : ﴿اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾[5] . وههنا نكت :

الأولى : في الخبر : ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح ، وقال : « لا تجتمع أُمتي على ضلالة »[6] . وقال عليه [الصلاة و]السلام : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء

---

(١) الزمر (٥٣/٣٩) .

(٢) محمد (٣٨/٤٧) .

(٣) الضحى (٨/٩٣) .

(٤) النساء (١٣٠/٤) .

(٥) النساء (٥٩/٤) .

(٦) أخرجه أبو داود عن أبي موسى .

الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ »[1] . وقال : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر »[2] . وكل ذلك يدل على أنه كما تجب طاعة الله وطاعة الرسول ، فكذلك تجب طاعة أولي الأمر من المؤمنين .

الثانية : قيل : بقاء الدنيا بسيوف الأمراء أو لسان العلماء ، فعليك بطاعتها إلا في معصية الله .

***

المقام السابع : المشاقة

قال الله تعالى : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾[3] . الآية . وههنا نكت :

الأولى : لله بحور عظيمة يهلك العبد فيها إن لم يكن له معتصم يتمسك به ، فجعل التوحيد سبباً للنجاة من البدعة ، لقوله : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾[4] . وجعل الإجماع سبباً للنجاة من الفتن ، لقوله تعالى : ﴿ **ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾ . ثم قال : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ .

الثانية : قال عليه [الصلاة و] السلام : « سبع من الهدى ، وفيهن الجماعة ، من خرج منهن فقد خرج من الجماعة : لا تشهدوا على أهل قبلتكم بكفر ولا بشرك ، واتركوا سرائرهم إلى الله . وصلوا على من مات من أهل القبلة . وصلوا الصلوات الخمس في الجماعة خلف كل بر وفاجر . وجاهدوا مع كل خليفة . ولا تخرجوا على أئمتكم بالسيف . وادعوا لهم

---

(١) أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود .

(٢) أخرجه الشيخان عن أنس .

(٣) النساء (٤/١١٥) .

(٤) آل عمران (٣/١٠٣) .

بالصلاح ولا تدعوا عليهم . وجانبوا الأهواء كلها ، فإن أولها وآخرها باطل » .

الثالثة : سئل واحد عن القلب السليم فقال : هو الذي دينه بلا شك ، ومذهبه بلا هوى ، وعمله بلا رياء ، وبدنه بلا خصم .

* * *

المقام الثامن : في الأذى

يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة واعد لهم عذاباً مهيناً . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً واثماً مبيناً** ﴾[1] .

اعلم أن الله تعالى نهى عن ايذاء المؤمن كما نهى عن ايذاء نفسه وايذاء رسوله ، ثم أكد ذلك فقال : ﴿ **وقولوا للناس حسناً** ﴾[2] . وقال : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** ﴾[3] . وقال عليه [الصلاة و]السلام : « المؤمنون قوم بررة ، هم المتحابون المتباذلون . والمنافقون قوم فجرة ، هم المتقاطعون المتدابرون[4] . وقال عليه [الصلاة و]السلام لعائشة رضي الله عنها : « إن الله يبغض الفاحش والمتفحش »[5] . وفيه نكت :

الأولى : قال الله تعالى : ﴿ **ويستغفرون للذين آمنوا** ﴾[6] . ولم يقل : ويلعنونهم ويؤذونهم .

---

(١) الأحزاب (٣٣/٥٧ ، ٥٨) .

(٢) البقرة (٢/٨٣) .

(٣) الفرقان (٣٥/٦٣)

(٤) لم أجد صيغة هذا الحديث في مابين يدي من مراجع .

(٥) اخرجه الإمام الطبراني .

(٦) غافر (٤٠/٧) .

الثانية : قال عليه [الصلاة و] السلام : « إن الله رفيق يحب الرفقاء »[1] .

الثالثة : عاتب الله نوحاً حين دعا على قومه بالهلاك فقال : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾[2] . ولم يقل : أعداء بعض . وقال ابن عمر رضي الله عنه « إذا لعن العبد دابة تقول الدابة : لعن الله أعصانا لربه » .

الرابعة : قال تعالى لرسوله : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لأنفضوا من حولك ، فأعف عنهم واستغفر لهم** ﴾[3] . وقال : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾[4] . ونهى عن الهمز واللمز فقال : ﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾[5] . وقال : ﴿ **ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم** ﴾[6] . وقال لموسى وهارون : ﴿ **فقولا له قولاً ليناً** ﴾[7] . وقال تعالى : ﴿ **فقل هل لك إلى أن تزكي** ﴾[8] .

* * *

المقام التاسع : الالتجاء

قال الله تعالى : ﴿ **ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة** ﴾[9] . فمدح المؤمنين على الجهاد وعلى التولي في ذلك بالمؤمنين ، لأن

---

(١) لم أقف على مصدر يروي هذا الحديث في ماتوفر لديَّ من مراجع .

(٢) التوبة (٩/ ٧١) .

(٣) آل عمران (٣/ ١٥٩)

(٤) الأعراف (٧/ ١٩٩) .

(٥) الهمزة (١٠٤/ ١) .

(٦) القلم (٦٨/ ١٠ ، ١١)

(٧) طه (٢٠/ ٤٤) .

(٨) النازعات (٧٩/ ١٨) .

(٩) التوبة (٩/ ١٦) .

المنافقين كانوا يتولون اليهود ، ويتخذونهم وليجة وبطانة ، فعليك ان تتولى الله ورسوله والمؤمنين وليجة وبطانة . وفيه نكت :

الأولى : انه مدح ابراهيم حيث تبرأ من أبيه وشكر عن حاطب بن أبي بلتعة حيث كاتب الكفار فقال : ﴿ **لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء** ﴾[١] . وقال : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون** ﴾[٢] .

فسمى من يتولى الله ورسوله : « حزب الله » ثم قال : ﴿ **ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[٣] .

الثانية : قال الواسطي : علامة المؤمن أربعة : لا يشكو من المصائب ، ولا يتخذ عمله رياء ، ويحتمل أذى خلقه ولا يكافئهم ، ويداري عباده على تفاوت أخلاقهم[٤] .

* * *

المقام العاشر : في الشهادة على التوحيد

السؤال الأول : هو ان الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ومن شهد لنفسه فإن تلك الشهادة لا تقبل في الفقه .

والجواب من وجوه :

الأول : أن هذا في الظاهر شهادة ، وفي المعنى اقرار ، واقرار المقر[٥]

---

(١) الممتحنة (٦٠/١) .

(٢) المجادلة (٥٨/٢٢) .

(٣) يونس (١٠/٦٢) .

(٤) وذلك بأن يعفو عن مسيئهم ، ويستغفر لمن ظلمه .

(٥) وإقرار المرء (هامش ء) من نسخة ثانية .

عـلى نفسه مقبـول . وإنما قلنـا : ان هذا اقـرار ، لأنه لما ادعى الـوحـدانيـة في الألـوهية فقـد أقـر بـأن الخلق كلهم عبيـده ، ورزق العبيـد عـلى المولى لازم ، فكأنه تعالى أقر على نفسه للخلق كلهم بـالرزق والحفظ والنصـرة ، ألا ترى أنـه قال : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها** ﴾[1] .

الثـاني : ان الشهادة عبـارة عن قول يـدل على شيء دلالـة ظـاهـرة ، ثم ذلك القول لا يراد لكونه قولاً ، بل لكونـه دالاً على ذلـك المطلوب . فـلا جرم كل فعل قام مقام القول في ذلك التعـريف كان شهـادة . ثم إن القول الـدال لو كـانت دلالته قـطعية غـير محتملة كان أولى بـأن يكون شهـادة . وإذا ثبت ذلـك فجميـع المخلوقات[2] دالـة على وحـدانيـة الله وإلهيتـه دلالـة قـطعيـة عقليـة ، فكانت أولى بأن تكون شهادة ، فـإذن شهادة الله عـلى التوحيـد لأجل أنـه خلق الدلائل الدالة على الوحدانية قطعاً ، وأمـا شهادة المـلائكة وأولي العلم فمعنـاها شهادة الاقرار والاعتراف ، فكانت شهادة الله على ذلك أقوى .

الثـالث : وهو أن كـل مسألـة يتوقف العلم بصـدق الرسـول عـلى العلم بصحتهـافإنه يمكن اثباتها بالدلائل السمعيـة، ومسألـة الوحـدانية كـذلك ، فـلا جـرم ذكر العلماء أنـه يمكن اثبات ان الإلـه واحد بـالدلائـل السمعيـة[3] . وإذا كان الأمر كذلك ، كان المقصود من هـذه الشهادة ان يستـدل بها عـلى وحدانيـة الله تعالى .

السؤال الثاني : أنه تعالى نهى العباد أن يمدحوا أنفسهم ، فقال : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾[4]. ثم مدح نفسه ، واثنى على نفسه ، فما السبب ؟

والجواب من وجوه :

الأول : وهـو أنـه حصـل للواحـد منـا نـوع فضيلة فــذلـك فضــل الله

(١) هود (٦/١١) .

(٢) فجميع المخلوقات لله تعالى كانت دالة (ج) .

(٣) أي الحسية .

(٤) النجم (٣٢/٥٣) .

وكرمه ، والمستحق للثناء هو الله ، حيث أعطى تلك الفضيلة ، فلا جرم يقبح من الـواحد منـا أن يثني على نفسـه . أما الحق سبحـانـه فـإنـه قـد حصلت لـه صفـات الكمـال ، ونعـوت الجـلال عـلى وجـه يمتنـع زوالـه وتغييـره ، فـظهـر الفرق .

الثـاني من الفـرق : أن مـا فينـا من الخصـال الممـدوحـة لا ينفـك عن أضـدادها ، فـإن علمنا مشـوب بالجهـل ، وقدرتنـا مشوبـة بالضعف ، وملكنـا لغـرض الهلاك[1] ، وبقـاءنا لغـرض الفناء[2] ، وحيـاتنا لغـرض الموت ، وأمـا صفات الله تعالى فـإنها خاليـة عن أضدادهـا ، فإنـه عالم بـلا جهل ، وقـادر بلا عجز ، وملك بلا زوال ، وبقـاء بلا فنـاء ، وحياة بـلا موت ، وعـزة بلا ذل ، فظهر الفرق .

الثـالث : ان الله تعالى انمـا نهى عبده عن تـزكية نفسـه لأن العبـد يقـدم الدعوى على اظهار المعنى ، فأما سبحانه فـإنه كـان أظهر المعنى قبـل الدعـوى ، لأنه خلقك ، وأعطاك الحياة والعقـل ، وأنواع المنـافع ، فـإظهار الـدعوى بعـد إقـامة البـرهان عـلى المعنى يكون مستحسنـاً ، بخلاف حـال العبد ، فـإن أكـثر أحواله يكون باظهار الدعوى مقدمة على اظهار المعنى[3] . والله أعلم .

الرابع : ان من أوله نطفـة مذرة ، وآخـره جيفة قـذرة ، وفيما بينهـما حمال العذرة لا يليق به أن يمدح نفسه ، إنمـا يحق مدح النفس لمن هـو الأول والظاهـر والباطن .

الخـامس : ان حب الإنسان لنفسـه غالب ، فـإذا شـرع في مـدح النفس استولى ذلك عليه ، ثم ان ذلك يعميـه ويصمه عن التنبـه لما فيـه من المعايب ، فيصير ذلك سببـاً في بقائـه في ظلمات الحمـاقات[4] والجهـالات . بخلاف الحق

---

(١) أي لغرض الاستعمال .

(٢) أي التحلل بالموت .

(٣) قـال تعالى : ﴿ فـلا تـزكـوا أنفسكم ، هـو أعلم بمن أتقى ﴾ [النجم ٣٢/٥٣] راجـع تفسـير البحر المحيط (١٦٥/٨) .

(٤) ما أوردناه ثابت على هامش ج من نسخة ثانية

سبحانه وتعالى فإنه منزه عن النقائص والافات ، فلا يصير مدحه لنفسه سبباً لشيء من المعايب والنقائص .

السؤال الثالث : لما شهد لنفسه بالوحدانية ، فأي حاجة مع حصول شهادته الى شهادة الملائكة وأولي العلم ، وما الحكمة في أنه تعالى ذكر بعد شهادة نفسه شهادة الملائكة وأولي العلم ؟

والجواب من وجهين :

الأول : روي أنه عليه [الصلاة و]السلام كان يمشي خلف جنازة ، فقال وا حد : هذا الميت كان رجلاً صالحاً ، فقال عليه [الصلاة و]السلام : « واحد . وقال الثاني والثالثكذلك، فقال : اثنان ، ثلاثة . فلما قال الرابع مثل ذلك ، قال : وجبت . فقيل : يا رسول الله ، وما التي وجبت ؟ فقال : وجبت مغفرته في كرم الله تعالى والجنة »[1] . لأن المؤمنين شهود الله تعالى على وحدانيته ، لو لم تقبل شهادتهم هنا لصارت شهادتهم بالوحدانية باطلة غير مقبولة ، وهو حكيم لا يفعل ذلك . وإذا عرفت هذا فنقول : الله تعالى لما جعل المؤمنين شهوداً لوحدانيته ، فلو أظهر ذنبهم ومعصيتهم يوم القيامة كانت شهادتهم مردودة[2] ، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم . فلما جعلهم في هذه الآية شهوداً على وحدانيته دل ذلك على أنه تعالى لا يظهر قبح فعلهم يوم القيامة ، اللهم حقق رجاءنا بكرمك .

الثاني : انه ليس المقصود من ذكر شهادة الملائكة والمؤمنين توقيف هذا المطلوب على شهادتهم ، بل المقصود شهادة الله لهم بأنهم يوافقون الله في كل ما وصل اليهم من نهيه وأمره وخبره ، والمقصود اظهار شرفهم في كونهم موافقين لله في هذه الشهادة ، لا توقيف المطلوب على شهادتهم .

السؤال الرابع : ما الحكمة في تكرير « لا إله إلا الله » في ﴿شهد

---

(١) كلمة الجنة مأخوذة من هامش (ج) من نسخة ثانية .

(٢) لأن الفساق شهادتهم مردودة .

الله ﴾ الآية ؟

والجواب من وجوه:

الأول : ان المقصود من التكرار التنبيه على ان الانسان يجب أن يكون مواظباً على ذكر هذه الكلمة في أكثر أوقات عمره .

الثاني : أنه لما حصلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها صار ذلك تنبيهاً على أنه يجب على العاقل أن يجعل هذه الكلمة مذكورة في أول عمره وآخره ، حتى يكون في الدنيا سعيداً ، وفي الآخرة حميداً .

الثالث : إن أحدى هاتين الشهادتين كانت قبل خلق الخلائق[1] . والثانية بعد خلقهم .

الرابع : أنه ذكر إحدى هاتين الشهادتين عن نفسه ، والأخرى عن خلقه[2] .

---

(١) لقوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى ﴾ [الأعراف ٧ / ١٧٢]

(٢) المقصود (خلقه) أولوا العلم منهم ، لأنهم أعرف بالله ممن عداهم .

الفصل السابع

في

الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا لا إله إلا الله

اعلم ان الإيمان لا بد له من أمرين : أحدهما هو : ان الأصل حصول المعرفة بالقلب ، واليه الاشارة بقوله :﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾[1] . وثانيها : الاقرار باللسان وبالتوحيد ، واليه الإشارة بقوله : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾[2] . وذلك لأن قوله : ﴿ **قل** ﴾ أمر للمكلف بأن يقول بلسانه ما يدل على التوحيد ، ثم أكد هذه الدلالة بالسنة الغراء ، وهي قوله عليه [الصلاة و]السلام : « أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » .

والسبب في انه لا بد من هذا القول هو أن للإيمان أحكاماً ، بعضها يتعلق بالباطن ، وبعضها بالظاهر ، فما يتعلق بالباطن ، هو أحكام الآخرة ، وذلك متفرع عن العلم الذي هو باطن عن الخلق ، وما يتعلق بالظاهر هو أحكام الدنيا ، ولا يمكن إقامتها إلا بعد معرفتنا أنه مسلم ، ولا معرفة إلا بالقول باللسان ، فصارت المعرفة ركناً أصلياً في حق الله تعالى ، والقول ركناً شرعياً في حق الخلق ، واليه الاشارة بقوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن** ﴾[3] . وقال عليه [الصلاة و]السلام : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة » وقال تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾[4] . جنة في الوقت وهي جنة المعرفة ، وجنة في العقبى[5] وهي جنة الآخرة .

---

(١) محمد (١٩/٤٧) راجع التفسير الكبير (٥٨/٢٨) .

(٢) الإخلاص (١١٢ / ١) .

(٣) البقرة (٢٢١/٢)

(٤) الرحمن (٤٦/٥٥) .

(٥) في الأصل (غُدا) والوارد هنا مأخوذ من نسخة ثانية هامش (ج) .

واختلف المحققــون ، فقـال الأكثـرون : الأولى أن يكـون الـذكــر في الابتداء قول : لا إلـه إلا الله . وفي الانتهاء الاختصـار على ذكـر كلمة : الله ، ومنهم من واظب في الابتـداء والانتهـاء عـلى ذكـر لا إلــه إلا الله ، وحجـة هؤلاء : ان عـالم القلب مشحـون بغـير الله ، فـلا بـد مـن النفي لنفـي الأغيار[1] ، فإذا صار خالياً فحينئذٍ يـوضع منبـر التوحيـد ، ويجلس على سلطان المعرفة .

وأما الذين اكتفوا في الانتهاء بكلمة (الله) فلهم في ذلك وجوه :

الحجة الأولى : ان نفي الغيب عدم .

الحجـة الثانيـة : من قال : لا إلـه إلا الله ، فلعله حين ذكـر كلمة النفي لا يجـد من المهلة ما يصـل فيه الى الإثبـات ، فحينئذٍ يبقى في النفي غـير منتقل الى الإثبات ، وفي الجحود غير منتقل الى الاقرار .

الحجة الثالثة : ان المواظبَة على هذه الكلمة مشعرة بتعظيم الحق ، ينفي الأغيار ، إلا أن نفي الأغيار من بـاب الاشتغال ، والاشتغـال في الأغيار يـرجع في الحقيقـة الى شغـل القلب بـالأغيـار ، وذلـك يمنـع من الاستغـراق في نـور التـوحيد ، فمن قـال : « لا إله إلا الله » فهـو مشتغل بغـير الحق [وبـالحق] . ومن قـال : الله ، فهـو مشتغـل بـالحق [وحـده] . فـأين أحــد المقـامــين من الآخر ؟

الحجة الرابعة : أن نفي الشيء إنما يحتـاج اليه عنـد خطور ذلـك الشيء بـالبال ، وخـطور ذلك الشيء بـالبال لا يكـون إلا عند نقصـان الحـال ، فـأمـا الكـاملون الذين لا يخـطر ببـالهم وجـود الشـريـك فقـد امتنـع أن يكلفـوا بنفي الشـريك ، بـل لا يخطر ببـالهم ولا يجـري في خيـالهم إلا ذكـر الله ، فـلا جـرم يكفيهم أن يقولوا : الله .

---

(١) معنى الأغيار أي ما هو غير الله سبحانه وتعالى ، وهو جمع مفرده غير .

الحجة الخامسة : قال الله تعالى : ﴿ قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾[1] . فأمره بذكر الله ، ومنعه من الخوض معهم في أباطيلهم ولعبهم ، والقول بالشريك[2] من الأباطيل واللعب ، ونفيه خوض في ذلك الكلام ، فكان الأولى الاقتصار على قولنا (الله) .

فهذا ما في هذا المقام .

وههنا أنواع من التضرعات :

احدها : أن نقول : إلهنا ، أن موسى عليه السلام سأل أجل الأشياء فقال : ﴿رب أرني أنظر اليك ﴾[3] . وسأل أقل الأشياء فقال : ﴿ رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾[4] . فنحن أيضاً نسألك أجل الأشياء وهي خيرات الآخرة ، وأقلها وهو خيرات الدنيا ، فنقول : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾[5] .

وثانيها : يحكى أن رجلاً باع جارية ، ثم ندم ، واستحيا من المشتري أن يظهر هذه الحالة ، فكتب في كفه حاجته ورفعها الى السماء، فرأى المشتري في المنام : ان فلاناً من أحباء الله ، وقلبه معلق[6] بهذه الجارية ، فردها عليه ، وأجرك على الله . فلما أصبح الرجل حمل الجارية اليه ، وردها عليه . فأراد البائع أن يرد الذهب ، فقال المشتري : ان لهذا الثمن ضامناً ، وهو خير منك . . . الهنا ، إن كان ذلك البائع ندم على بيع تلك الجارية ، فنحن ندمنا على بيع الآخرة بالدنيا ، واذا كان ذلك البائع قد استحى من العود ، فنحن من كثرة ذنوبنا نستحي منك ، وإذا كان ذلك البائع قد كتب على كفه شيئاً

---

(١) الأنعام (٦/٩١) . راجع الطبري (١١/٥٢٧) .

(٢) يريد بهذا القول من المشرك لا من المؤمن المقر بالتوحيد .

(٣) الأعراف (٧/١٤٣) .

(٤) القصص (٢٨/٢٤) .

(٥) البقرة (٢/٢٠١) .

(٦) مشتغل (ج) .

من حـاجته ورفعهـا الى السماء ، فجميـع أعضائنـا مكتوب عليهـا احتياجنـا الى رحمتك ، وذلنا بـين يديـك . . . إلهنا ، كـما ضمنت دين الغرمـاء فاقبـل ديننا ، وأسقط عنـا تبعات أعمـالنا ، وافعـل بنا مـا أنت أهله ، ولا تفعل بنـا مـا نحن أهله ، يا من لا يشغله شأن عن شأن .

ثـالثهـا : يـروى ان الصـديق رضي الله عنـه كـان يخـافت في صـلاتـه بالليل ، ولا يرفع صوته بالقراءة ، وكـان عمر رضي الله عنـه يجهر بهـا ، فسأل رسول الله ﷺ أبا بكر عن فعله فقال : من أناجيه يسمـع كلامي . وسـأل عمر فقال : أوقظ الوسنان[1] ، وأطرد الشيطان ، وأرضي[2] الرحمن ، فـأمر رسـول الله ﷺ أبـا بكر بـرفع صـوته قليـلاً ، وأمـر عمـر بخفضـه قليـلاً . . . إلهنـا ، الإيمـان فينا كـالرسـول والقلب مثل أبي بكـر ، واللسـان مثـل عمـر ، فـالقلب يخافت بالذكر كـأبي بكر ، واللسـان يظهـر الذكـر كعمر ، والإيمـان يأمـر القلب بـالزيـادة في الذكـر ، ويأمـر اللسان بـإخفاء الـذكر ، فـوفقنا لما تحب وتـرضى بفضلك يا أكرم الأكرمين

---

(١) الوسنان : النائم .

(٢) باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

فصل

روى الإمام محمد بن علي الحكيم الترمذي عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نفس تموت فتشهد أن لا إله إلا الله ، واني رسول الله ، يرجع ذلك الى قلب موقن ، ألا غفر الله له »[1] . قال الشيخ : فهذه شهادة شهد بها عند الموت ، وقد ماتت نفسه من الشهوات ، ولانت نفسه المتمردة من هول الموت وذهب حرصه ، وألقى نفسه بين يدي رب العزة ، وقدرة رب العالمين ، فاستوى منه الظاهر والباطن[2] . فلقي الله مخلصاً بتلك الشهادة ، فغفر الله له بتلك الشهادة التي وافق ظاهرها باطنها .

وأما الذي يقوله أيام الصحة فقوله مع التخليط : لأنه يشهد بهذه الشهادة وقلبه مشحون بالشهوات ، ونفسه أشرة بطرة ، فلا يستحق بذلك القول المغفرة . فهذا هو التفاوت بين ذكر الشهادة في حالة الصحة ، وذكرها في آخر زمان الحياة .

وتمام القول فيه : ان الإنسان الذي يكون قلبه مفتوناً بدنياه ، ومأسوراً في الشهوات ، يكون سكراناً عن الآخرة ، حيراناً عن الله ، لم يحصل فيه اليقين البتة[3] ، لأن قلبه مملوء بالميل إلى غير الله ، فلا يحصل فيه الميل الى الله . أما إذا حصل في القلب اليقين بالله كان الأمر بخلاف ذلك ، وذلك

---

(١) راجع نوادر الأصوال للحكيم الترمذي رضي الله عنه ص ٢١٣ .

(٢) قال تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء ﴾[ابراهيم ١٤ / ٢٧] . وقال أيضاً ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ [الفتح ٤٨/ ٢٦] راجع تفسير القرطبي (١٦/ ٢٨٦) .

(٣) وشرط اليقين بالشيء أن يثبت في القلب دون ما عداه .

لأن اليقين سمي يقيناً لاستقراره في القلب ، وهو النور . يقال : يقن الماء في الحفرة ، إذا استقر فيها . وإذا استقر النور دام ، وإذا دام صارت النفس ذات بصيرة[1] ، فاطمأن القلب بجلال الله ، ثم انقطع عن غير الله ، فوقف هناك عاجزاً ، فاستغاث بالله صارخاً مضطراً ، فأجابه الحق ، فإنه يجيب دعوة المضطرين[2] . فتفرق ذلك النور المتلألىء في القلب ، فانمحقت به ظلمات الاشتغال بغير الله ، فيصير الملكوت مشاهداً له ، وهو قول حارثة لرسول الله ﷺ : « كأني أنظر الى عرش ربي بارزاً » . فقال له رسول الله ﷺ : « عبد نور الإيمان قلبه »[3] .

ومما يحقق ما قلناه قوله عليه [الصلاة و]السلام : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، مخلصاً بها روحه ، مصدقاً بها قلبه ولسانه ، فتقت له السموات فتقاً ، حتى ينظر الرب الى قائلها من أهل الدنيا » .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة . قيل : يا رسول الله ، وما اخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن المحارم »[4] .

وقال عليه [الصلاة و]السلام : « أخلص يكفك القليل »[5] .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عهد إليَّ ألا يأتيني أحد من أُمتي بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئاًإلا وجبت له الجنة . قالوا: يا رسول الله ، وما الذي يخلط بها ؟ قال : حرصاً على الدنيا ، وجمعاً لها ،

---

(١) البصيرة هي رؤية القلب كما أن البصر هو مشاهدة النظر والعين .

(٢) لقوله تعالى : ﴿ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ [النمل ٢٧/٦٢] راجع كشاف الزمخشري (٣/٢٩٧) .

(٣) أخرجه الإمام مسلم عن أنس .

(٤) أخرجه الطبراني .

(٥) أخرجه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

ومنعاً لها ، يقول بقول الأنبياء ، ويعمل عمل الجبابرة »[1] .

فالحاصل : انه لا بد من اليقين عند التكلم بهذه الكلمة ، حتى تكون نافعة ، ولا يحصل اليقين إلا بموت الشهوات ، ولا يحصل موت الشهوات إلا بأحد طريقين : أحدهما : أن يروض نفسه حتى تموت شهواته حال حياته ، والثاني : ان ماتت شهواته عند وفاته ، وعظم رجاؤه وخوفه من ربه ، وانقطع نظره عن غير الله بالكلية اضطراراً ، فإذا تكلم ونطق بهذه الكلمة في تلك الحالة استوجب المغفرة .

فلهذا السبب استحب السلف أن يلقنوا المحتضر هذه الكلمة . قال عليه [الصلاة و]السلام : « لقنوا موتاكم » فإن الإنسان عند القرب من الموت تموت شهواته ، ويحصل له نور اليقين[2] ، فصارت هذه الكلمة مقبولة منه . وأما الأول وهو الذي يروض نفسه ، فقد فتح الله له روزنة الى الغيب ، فركبته أهوال سلطان الجلال ، فينطق بها عن القلب الصافي ، فهو بالمغفرة أولى .

وعن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ،م الحمد لله رب العالمين » . قالوا : يا رسول الله ، فكيف هي للحي ؟ قال : « هي أجود وأجود »[3] . وكان أهل البيت يسمون هذه الكلمات : كلمات الفرج . فيتكلمون بها في النوائب والشدائد فيجيئهم الفرج . وفيه زيادة : « لا إله إلا الله العلي العظيم » .

---

(١) أخرجه الطبراني .

(٢) وحال موت الإنسان وتجرده من شهوات الدنيا وهو مدبر عنها ينكشف حيال ناظريه الأمر الملكوتي الغيبي . وهذا مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾[ق ٥٠/٢٢] .

(٣) أخرجه الترمذي عن ابن عمر .

وعن مكحول : إن كلمات الفرج « لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قال لي رسول الله ﷺ : « ألا أعلمك كلمات إذا قلتها غفرت لك ذنوبك ، وإن كانت مثل عدد الذر من الخطايا : لا إله إلا الله العلي العظيم ، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » .

* * *

فصـــل

قـال جعفـر بن محمـد الصـادق : عجبت لمن أبتلي بـأربـع[1] . : كيف يغفـل عن أربع : عجبت لمن أعجب بـأمـر كيف لا يقـول : ﴿ مـا شـاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ . وأنـه تعالى يقـول : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتـك قلت ما شـاء الله لا قـوة إلا بـالله ﴾[2] . وعجبت لمن خـاف قـومـاً كيف لا يقـول ﴿حسـبي الله ونعم الـوكيل﴾ والله تعالى يقول : ﴿ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالـوا حسبنا الله ونعم الـوكيل . فـانقلبوا بنعمـة من الله وفضـل لم يمسسهم سـوء ﴾[3] . وعجبت لمن مكـر بـه كيف لا يقـول : ﴿ وأفـوض امـري الى الله ان الله بصـيربالعبـاد﴾ والله تعالى يقـول : ﴿ فوقـاه الله سيئـات ما مكـروا ، وحـاق بـآل فـرعـون سـوء العـذاب ﴾[4] . وعجبت لمن أصـابـه هم أو كـرب لا يقـول : ﴿ لا إلـه إلا أنت سبحـانـك إني كنت من الظالمين ﴾[5] . فيقول الله : ﴿ فاستجبنا له ونجينـاه من الغم ، وكذلـك ننجي المؤمنين ﴾[6] .

وقـال سفيان بن عيينـة : ان الله لما قـال : ﴿ وكذلـك ننجي المؤمنـين ﴾ فقـد وعـد كـل مؤمن يقـول : ﴿ لا إلـه إلا أنت سبحـانـك أني كنت من الظالمين ﴾ . أن ينجيه من الغم . ومعلوم بالضرورة ان الله لا يخلف الميعاد .

---

(١) تمنى أربعاً (على هامش ج) من نسخة أخرى .

(٢) الكهف (١٨/٣٩) .

(٣) آل عمران (٣/١٧٣ ، ١٧٤) .

(٤) غافر (٤٠/٤٥) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٣١٨) .

(٥) الأنبياء (٢١/٨٧) . وما من إنسان يدعو بهذا الدعاء إلا فرج الله همه وعسره .

(٦) الأنبياء (٢١/٨٨) .راجع التفسير الكبير (٢٢/٢١٥ ـ ٢١٧) بتصرف .

فصــل
في أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى :

لما كان كـل ما تتصـور النفس فالله بخـلافه ، فلم يتمكن العقـل والنفس من الاشارة الى حقيقة معلومة بأن حقيقة الإله هي هذه الحقيقة .

ويـروى عن سهل بن عبـد الله انـه سُئـل عن ذات الله فقـال : ذات الله مـوصوفـة بالعلم ، غـير مدركـة بالاحـاطة ، وقـد حجب الخلق عن معرفـة كنه ذاتـه ، ودلهم عليه بـآياتـه ، والقلوب تعرفـه ، والعقول لا تـدركه ، ينـظر اليه المؤ منون بالأبصار من غير احاطة ، ولا إدراك نهاية .

وروي عنه أيضاً أنه قال : غاية المعرفة الدهشة والحيرة .

وقـال الشبلي : من اشـار اليـه فهـو ثنـوي ، ومن كيفـه فهـو وثني ، ومن نـطق فيه فهـو غافـل ، ومن سكت عنه فهـو جاهـل ، ومن وهم أنه واجـد فهو فاقد ، وكـل ما ميـزتموه بـأفهامكم ، وأدركتمـوه بعقولكم فهـو مصروف مـردود اليكم ، محدث مصنوع مثلكم .

واعلم أن من النـاس من احتـج في هـذه المسـألـة بـآيـات ، منهـا قـولـه تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾[1] . قـال أهل التفسـير : وما عـرفوه حق معرفته . من قدر الثوب إذا حزره وأراد معرفة مقداره .

واعلم ان هـذا الاستدلال ضعيف ، لأن هـذه الآية وردت في كتـاب الله تعالى في ثلاثة مواضع :

---

(١) الأنعام (٩١/٦) . الحج (٧٤/٢٢) . الزمر (٦٧/٣٩) .

أولها : في سورة الأنعام ، ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾[1] . فهؤلاء الذين قالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ كانوا منكرين كل النبوة ، ومن كان كذلك كان كافراً ، فقوله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ عائد الى هؤلاء .

وثانيها : قال الله تعالى في سورة الحج : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . وما قدروا الله حق قدره ﴾[2] . فلما كان الكلام مع عبدة الأوثان كان هذا الكلام عائداً اليهم .

ثالثها : قال الله تعالى في سورة الزمر : ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون . ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾[3] . ثم قال بعد هذا : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ . فيكون هذا الكلام عائداً الى الذين أشار اليهم قبل هذه الكلمة بقوله : ﴿ أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ .

وإذا ثبت هذا فقوله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ عائد في الأولى الى منكري النبوات ، وفي الثانية والثالثة الى عبدة الأوثان . فلا يلزم من وصف الكفار بهذا الوصف كون المؤمنين كذلك موصوفين به[4] .

ومما اشتهر التمسك به في هذه المسألة قوله تعالى في سورة طه : ﴿ يعلم ما بين أيدهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾[5] . وأجيب عنه بأن قيل :

(١) الأنعام : (٦/٩١) .
(٢) الحج (٢٢/٧٣ ، ٧٤) .
(٣) الزمر (٣٩/٦٤ - ٦٦) .
(٤) ولعل الخطاب لجاحدي النبوات وهذا ما يوحي به السياق .
(٥) طه (٢٠/١١٠) .

لِمَ لا يجوز أن يكون المراد من الآية أنه تعالى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون علماً بما بين أيديهم وما خلفهم . فالضمير في قوله تعالى : ﴿ به ﴾ لا يكون عائداً الى الله ، بل عائداً إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، لأن عود الضمير الى اقرب المذكورين أولى .

واعلم ان العمدة في هذه المسألة ان الله سبحانه غير متناهٍ في الذات والصفات ، والعقل متناهٍ في الذات والصفات ، والمتناهي لا سبيل له الى ادراك غير المتناهي ، وهذه هي النكتة المستحسنة ، ونحن نشرحها لتظهر قوتها إن شاء الله فنقول :

الحجة الأولى

العقل عاجز عن معرفة كونه تعالى قديماً أزلياً ، وذلك لأن كل ما يستحضره العقل استحضاراً على سبيل التفصيل من مقادير الأزمنة فذلك متناهٍ ، مثلاً نفرض قبل هذا الوقت ألف ألف سنة ، ونفرض بحسب كل لمحة من هذه المدة ألف ألف سنة ، وهكذا إلى أقصى ما يقدر الوهم والخيال على استحضاره .

ثم إذا تأمل العقل عرف أن كل ذلك متناهٍ ، والحق سبحانه إنما كان قديماً ازلياً[1] لأنه كان موجوداً قبل هذه المدة التي أحاط العقل والخيال بها ، فثبت أن كل مقدار يصل العقل والخيال اليه فالحق سبحانه ليس قديماً باعتبار إنه كان موجوداً في ذلك الوقت ، بل باعتبار انه كان موجوداً فيما وراء ذلك ، فإذن لا سبيل للعقل البتة الى معرفة القدم والأزل . وإذا عرفت هذا في كونه أزلياً قديماً فاعرف مثله في كونه دائماً أبدياً .

فإذن العقل لا سبيل له البتة الى معرفة كونه دائماً أبداً على سبيل التفصيل ، فإن كل ما يشير العقل اليه فأزليته وأبديته خارجتان عن ذلك المقصود .

---

(١) أزليا : من غير ابتداء كما أن أبديا من غير انتهاء أما سرمدياً فلا ابتداء له ولا انتهاء .

وأيضاً إذا قلنا : انه موجود ليس بجوهر ولا عرض ، ولا حال ولا محل ، فهذا ليس يقتضي معرفة ذات الحق سبحانه وتعالى ، لأنا أردنا بقولنا : موجود ، ما يناقض العدم ، فهذا المفهوم .

طلب الآخرة وترك التزيد من الدنيا

وتعاهد يا أخي قلبك بأسباب الآخرة ، وعرضه لذلك ، وصنه من أسباب الدنيا ، ومن ذكر يجر الى الحرص والرغبة ، ولا تأذنن لقلبك في استصحاب ما يعسر طلبه ، وينطفىء نور القلب من أجله[1] ، وكن في تأليف ما بينه وبين محمود العواقب حريصاً ، وخوف نفسك عقوبة ما في يديك من الدنيا ، وقلة أدائك لما يجب عليك فيه من الشكر ، واستكثر ما في يديك ، لما تعلم من ضعف شكوك ، فتشتغل النفس بما في يديها عن الفكر في أمر الدنيا ، والمحبة للزيادة منها .

فإذا أجممتها[2] . من ذكر الزيادة من الدنيا ، وحملتها على درجة الخوف مما في يديها ، قنعت ورضيت ، وعفت[3] . عن طلب الدنيا بالحرص والرغبة ، ورجعت الى الآخرة بالحرص عليها ، والرغبة فيها ، فإن النفس مبنية على أساس الطمع .

ومخرج الحرص والرغبة من الطمع ، وبناء الأنفس على قواعد الطمع . أما الطمع في الدنيا فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من الدنيا . وأما الطمع في الآخرة فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من أعمال الآخرة ، بالحرص عليها ، والرغبة فيها .

---

(١) أي من أجل الجد في طلبه والحرص عليه ، وقديماً قيل من تعجل شيئاً قبل اوانه عوقب بحرمانه هذا إن كان مرجواً إتيانه في أوان .

(٢) أجممتها : إذا أرحتها .

(٣) عفت عن طلب الدنيا : زهدت في طلبها .

قيل لحكيم : فما آلة الطمع ، وجماع آفاته ؟

قال : الشره والحرص ، وهيجان الرغبة . فعلى أيها أوقعت طمعها أحضرت أداتها ، وجمعت آلتها ، وجدت في طلبها .

فإذا قهرت صاحبها[1] . على موافقة هواها استعبدته ، فأذهلته وأذلته وأدهشته وأتعبته ، وطيشت عقله ، ودنست عرضه ، وأخلقت[2] . مروءته ، وفتنته عن دينه ، وإن كان عالماً لبيباً عاقلاً كيساً فطناً فصيحاً حكيماً فقيهاً لوثته وأسقطته ، وفضحته ، فاحتمل لها ذلك كله وهو الأريب العالم الأديب ، فصيرته بعد العلم جاهلاً سفيهاً ، أحمق خفيفاً .

وذلك أنها سقته من موافقة هواها كأسا سمّاً صرفاً ، فاستمالته ، فمال بعلمه وعقله وفهمه ، ونفاذ حكمته وبصره ، فأجراه مجرى هوى نفسه ، فعجلت له الفضيحة في عاجل الدنيا عند حكمائها وعقلائها ، وأسقطته من عين الله ، وأعين عباده من أهل البصائر ، وأخرت له أجل الندامة الطويلة عند مفارقة الدنيا ، وفي عرصات القيامة .

فإذا قطع عليها العبد الطمع من أسباب الدنيا ، وغلب بعقله هواها ، رجعت بطمعها الى منازل الآخرة ، وأحضرت أداتها[3] . واستعملت آلتها ، فاشتغلت بطلب أسباب الآخرة لا محالة ، لأنها بنيت على الطمع .

فإذا تجردت من طلب أسباب الدنيا ، وأقبلت على نفسها بالأياس من المخلوقين[4] ، رجعت برغبتها وطمعها الى أسباب الآخرة ، فجدت في طلبها

---

(١) في الأصول (قهرت صاحبها العبد) وكلمة العبد زائدة لا قيمة لها فربما أوردها الناسخ صفة لصاحبها فتعين حذفها .

(٢) اخلقت : أبلت .

(٣) أي استحضرت الجزاء الأخروي .

(٤) الإياس : اليأس .

واجتهدت ، وعزفت عن الدنيا[1] . وبـاينت الهوى ، وخـالفت العدو ، وتبعت العلم ، وكـانت مطيـة للعقـل ، صـابـرة عـلى مـر مـا يـدل عليـه الحق[2] ، فنجت وأنجت[3] .

* * *

(١) عزفت : زهدت فيها .

(٢) أي ما يشهد به ويشهد له .

(٣) نجت بنفسها وأنجت غيرها .

الخوف والحزن

وتعاهد يا أخي قلبك عند همه ، والزمه الفكرة في أمر المعاد ، فلا تفارق قلبك ، وتوهم بقلبك هول المطلع عند مفارقة الدنيا ، وترك ما قد بذل أهلها فيه مهج نفوسهم ، وتدنيس أعراضهم ، واخلاق مروءاتهم ، وانتقاص أديانهم ، ثم تركوا ذلك كله ، وقدموا على الله فرادى آحاد ، مع ما قد وردوا عليه من وحشة القبر ، وسؤال منكر ونكير ، وأهوال القيامة ، والوقوف بين يدي الله ، والمساءلة عن جميع ما كان منهم[1] من قول أو فعل ، من مثل مثاقيل الذر ، وموازين الخردل .

وسؤاله عن الشباب فيم أبلى شبابه ، وعن العمر فيم أفنى عمره ، وعن المال من أين اكتسب ، وعمن[2] منع ، وفيم أنفق ، وعن العلم ماذا عمل فيه ، وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها ، والتي كذبوا فيها .

فإنك يا أخي ان شغلت قلبك بذلك ، وأسكنته إياه ، كان فيك شيء من صحة تركيب العقل ، فإنه سيكل منك لسانك ، ولا يعدمك الخوف اللازم ، مع الحزن الدائم ، والشغل المحيط بقلبك ، فإن إبليس إنما يتسور عليك في الآثام من وسوسة نفسك ، وخراب قلبك .

وخرابه إنما يكون إذا كان فارغاً من الخوف اللازم ، والحزن الدائم ، فحينئذٍ ينفث فيه بالوسوسة لآمال الدنيا ، والجمع لها ، ومخافة فقرها ، مع لزوم طول الأمل لقلبك ، واعراضه عن الله تعالى ، وانقطاع مواد عظمة الله

---

(١) منه (في الأصول) وما أوردناه يوافق السياق .

(٢) وعما منع (في الأصول) .

منه ، وفراغه من الهيبة والحياء منه . فاذا وجد القلب عامراً خنس[1] ، ونفر منه ، ولم يجد فيه مساغاً ، ولا من جوانبه مدخلاً ، لأن القلب عامر بالخوف والأحزان والفكر ، فهو منير مضيء .

يرى العبد بنور قلبه مداخل إبليس ، فيرميه بالانكار لما يدعو اليه ، ويعتصم بما أيده الله به من نور قلبه ، فيدحره[2] عنه ، فولى الخبيث الى قلب قد فقد الخوف ، فخرب وأظلم ، فلا نور فيه .

فلا شيء اثقل على الخبيث من النور ، فإذا وجده[3] . خنس ، ونفر منه ، فلا يقدر عليه الا من قبل الغفلة من العبد .

ونور القلب إنما هو من تيقظه وحياته ، فإذا غفل مات وأظلم ، وطفىء نوره فيلبس على العبد ما يدخل عليه العدو ، أو يكدر عليه . فاختلس ابليس من العبد ، واستدام القلب بالغفلة ، فتسور عليه بالآثام ، فإذا أصر على الإقامة عليها ، ورضي بها ، علاه الرين[4] ، فأظلمه ، واستقر ابليس فيه ، ثم سلك به سبيل الآثام ، الى ان يوصله ويوقعه في الكبائر .

ولا شيء اعجب إلى إبليس من ظلمة القلب وسواده ، وانطفاء نوره ، وتراكب الرين عليه ، ولا شيء أثقل على الخبيث من النور والبياض والنقاء والصفاء ، وإنما مأواه الظلمة ، وإلا فلا مأوى له ولا قرار في النور والبياض .

ولقد بلغني ان النبي ﷺ كان يكره أن يدخل البيت المظلم ، حتى يضاء له فيه بمصباح[5] .

***

---

(١) خنس : اختبأ وكمن .

(٢) يدحره : يهزمه .

(٣) لا سيما إذا وجده (ب) وما أوردناه من (أ)

(٤) الرين : الظلمة المتراكمة .

(٥) لعل هذا الخبر يكون من رواية أحد الصوفية إذ لم أقف عليه في مابين يدي من مصادر .

مـراقبة القلب

يـروى عن بعض الحكماء أنـه قال : ان من اشـرف المقامـات وأفضلها : المراقبـة لله ، ومن احسن المراقبـة : أن يكون العبـد مراقبـاً بالشكـر للنعم ، والاعتراف بالاساءة ، والتعرض للعفو عن اساءتـه ، فيكون قلبـه لازماً لهذا المقام في كل أعماله ، فمتى ما غفل رده الى هذا بإذن الله .

ومما يعين على هذا ترك الذنوب ، والتفرغ من الاشغال ، والعناية بالمراجعة .

ومن أعمال القلب التي يزكو بها ، ولا يستغني عنها : الاخلاص ، والثقة ، والشكر ، والتواضع ، والاستسلام ، والنصيحة ، والحب في الله تعالى ، والبغض فيه[1] .

وقال : أقل النصح الذي يحرجك تركه ، ولا يسعك إلا العمل به ، فمتى قصرت عنه كنت مصراً على معصية الله تعالى في ترك النصيحة لعباده ، فأقل ذلك : ألا تحب لأحد من الناس شيئاً مما يكره الله عز وجل ، ولا تكره لهم ما أحب الله عز وجل .

فهذه الحال التي وصفنا واجبة على الخلق ، لا يسع تركها طرفة عين بضمير ، ولا بفعل جوارح .

وحال أخرى فوق هذه ، وهي فضيلة للعبد : أن يكره لهم ما كره الله ، وأن يحب لهم ما أحب الله تعالى .

---

(١) أي يبغض اعداءه .

قال : وجاء رجل لابن المبارك فقال : أوصني . فقال : « راقب الله فقال الرجل : وما مراقبة الله ؟ فقال : « أن تستحي من الله » .

قال : فالمناجاة والمراقبة من حيث تضع قلبك ، وهو : أن تضعه دون العرش ، فتناجي من هناك[1] .

وفي رد القلب الى المراقبة مراجعتان : أولاهما : مراقبة النظر مع تذكر العلم . قال تعالى : ﴿ **انه عليم بذات الصدور** ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ **يعلم ما في أنفسكم فأحذروه** ﴾[3] . ثم تذكر العظمة لوجود الحلاوة .

ومقام آخر ،يروى أن الله سبحانه أوحى إلى ابراهيم عليه السلام :« يا ابراهيم ، تدري لِمَ اتخذتك خليلاً ؟ قال : لا يا رب . قال : لطول قيامك بين يدي »[4] . قال : فقيل : إنما كان قيامه بالقلب ، وليس بالصلاة . وهذا يوافق القرآن ، قال تعالى : ﴿ **إنا خلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾[5] . وقول حارثة : « كأني أنظر الى عرش ربي بارزاً »[6] .

وقال : أعلى الأعمال في الدرجات أن تعبد الله على السرور بمولاك ، ثم على التعظيم له ، ثم على الشكر ، ثم على الخوف ، وآخر الأعمال التي تكون بالصبر[7] .

والصبر على وجوه : تصبر ، وصبر جميل[8] . ثم تخرج إلى الخوف ،

---

(١) والفخر الرازي بهذا القول متأثر بخواطر الصوفية ، الذين يعرجون الى العرش ، وينظرون في اللوح المحفوظ ويرون الله ولله في خلقه شؤون .

(٢) هود (١١/ ٥) . راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/ ٥) .

(٣) البقرة (٢/ ٢٣٥) .

(٤) راجع تفسير الطبري (٤/ ١٣٥) .

(٥) ص (٣٨/ ٤٦) أي جعلنا الآخرة هي كل همهم وشاغلهم فلا مصرف لهم عنها . راجع مختصر ابن كثير (٣/ ٢٠٦) بتصرف .

(٦) راجع مجمع الزوائد للهيثمي (١/ ٥٧) .

(٧) لأن الصبر عليها فيه قمع للشهوة .

(٨) التصبر : محاولة الصبر بمشقة .

والشكر ، ثم الى التعظيم ، ثم السرور .

ومن أراد الزهد فليكن الكثير مما في ايدي الناس عنده قليلاً ، وليكن القليل عنده من دنياه كثيراً ، وليكن العظيم منهم اليه من الأذى صغيراً ، وليكن الصغير منه اليهم عنده عظيماً .

وقال : إذا دعتك نفسك الى ما تنقطع به عن حظك ، فاجعل بينك وبينها حكماً من الحياء من الله تعالى .

وقال : ان الأكياس[1] . إذا دعتهم النفوس الى ان تقطعهم بخدائعها عن سبيل نجاتهم ، حاكموها الى الحياء من الله تعالى ، فأذلها حكم الحياء .

وقال : مخرج الاغترار من حسن ظن القلب ، ومخرج حسن ظن القلب مع القيام لله على ما يكره ، ثم من كذب النفس[2] .

وقال : من النصح أن تحب أن يكون الناس كلهم خيراً منك .

وقال : ذكر عند ابن المبارك عابد تعبد بلا فقه ، فقال : « ليت بيني وبينه بحراً »

وقال : من انقطع الى الله يصبر على الناس[3] . ومن انقطع الى غير الله لم يصبر عن الناس .

وقال كرز[4] . : « من قرأ القرآن ما له ولكلام الناس » .

وقال : إنما هي أيام قلائل ، فما على الانسان لو وهب نفسه لله .

وقال : التواضع لله : ذل القلب .

---

(١) الأكياس : الفضلاء .

(٢) فتضلله وتجعله يرى الخطأ صواباً والصواب خطأً .

(٣) لأن الله سبحانه حسبه .

(٤) وكان (كرز) رجلاً صالحاً زاهداً ورعاً توفي سنة ٢٠٣ هـ . راجع طبقات الأولياء لابن الملقن (ص ٩٨) .

وقال : أول النعم معرفة العلم الذي به تؤدي فرائض الله ، ثم الصحة والغنى ، ثم العقل .

وقال : ليس للعبد أن يرد على مولاده شيئاً من أحكامه[1] ، وعليه أن يرضي بما ورد عليه من حكم مولاه ، فإن لم يرض صبر فللعبد حالان : حال يوافق منه رضي على ما يحب ، وحال يوافق منه صبراً على ما يكره .

* * *

(1) فمن رد على الله سبحانه وتعالى شيئاً من أحكامه كفر بالاجماع .

العـدل والفضـل

بسم الله الـرحمن الـرحيم . . يـروى عن بعض الحكـماء انـه قـال : طريق الآخـرة واحـد ، والنـاس فيـه صنفـان : فصنفـ أهـل العـدل ، وصنف أهل الفضل .

والعدل عدلان : عدل ظاهـرفي مـابينـك وبين النـاس ،وعدل بـاطن فيما بينك وبين الله .

وطـريقالعـدل طريق الاستقـامة ، وطـريق الفضل طـريق طلب الزيـادة . والذي على الناس لزوم العمل به طريق الاستقامـة ، وليس عليهم لزوم طـريق الفضل .

والصبـر والـورع مـع العـدل ، وهمـا واجبـان ، والـزهـد والـرضـا مـع الفضـل ، وليسا بـواجبين . والانصـاف مع العـدل ، والاحسان مـع الفضل . ومن شغله العـدل عن الفضل فمعـذور ، ومن شغله الفضـل عن العـدل فهـو مخدوع متبع لهوى نفسه . وعلى الانسان معرفة العـدل ،ليس عليه معـرفة الفضل إلا تبرعـاً ، وهكـذا كـل عمـل لا يجب عـلى العبـد فعله ، لا يجب عليـه علمه .

ولا يكـون العبد من أهـل العدل إلا بثـلاث خصال . بـالعلم حتى يعلم ما له مما عليه ، وبالفعل ، وبالصبر .

فمفتاح العدل ، وأولاه بـالعبد ، وأوجبـه عليه : أن يعـرف قدر نفسـه ، فلا يكون لها عنده قـدر فوق منـزلتها ، وأن تشبـه سريـرته عـلانيته ، فـأخرم

الناس فيه ، وأقربهم منه مأخذاً : المراجع نفسه في كل خطرة تهواها نفسه ، أو تكرهها ، فينظر في ذلك : أن لو اطلع الناس على حالته هذه[1] فاستحيا أو كرهها تحول من تلك الحالة الى حالة لا يستحيا منها . فإن الذي لا يستحيا منه ضد الذي يستحيا منه، فإذا تحول واستمر فلينظر ، فإن اشتهت نفسه أن يطلع الناس عليه ، تحول منه الى ما لا تشتهيه نفسه ، فإن الذي تشتهيه ضده ، فيكون أبداً في ضد ما تشتهيه نفسه .

وأبعد الناس من العدل : أشدهم غفلة عن هذا ، وأقلهم محاسبة لنفسه . وأبعد الناس من العدل ، وأطولهم غفلة عن هذا : أشدهم تهاوناً به[2] .

ولو عقلت من الذي تراقب ، ثم تقطعت أعضاؤك قطعاً ، وانشق قلبك ، أو سحت في الأرض ، لكنت بذلك محقوقاً ، فلما لم تعقل لم تجد مس الحياء والخوف في مراقبة الله تعالى ، ومطالعته على ضميرك ، وعلمه بما تجتلبه حواسك على قلبك[3] ، وقدرته المحيطة بك ، ثم أعرضت بعد ذلك كالمتهاون به الى مراقبة من لا يطلع على سرك ، ولا علم له بما في ضميرك[4] ، فقلت : لو اطلع الناس على ما في قلبي لقلوني ومقتوني ، فمسك الحياء والخوف منهم حذراً من نقصان جاهك ، وسقوط منزلتك عندهم ، فكنت مراقباً ، ومنهم خائفاً ، ومن مقتهم مشفقاً ، إذ لم تخف مقت الله لك ، وسقوط منزلتك وجاهك عنده ، ومقت الله أكبر .

ثم اذا عملت شيئاً من الطاعات التي تقرب الى الله زلفى ، فإنهم اطلعوا عليها عقدت بقلبك حب حمدهم على ذلك ، وأحببت اتخاذ المنزلة

---

(١) وردت (أن لو اُطلع عليه الناس على حالته هذه) في الأصول وحذفت عليه لعدم فائدتها فهي زائدة .

(٢) وأطول غفلةمن هذا(في الأصل) .

(٣) بما تجليه عليك حواسك (أ)

(٤) بما في ضميرك شيئاً (ب) .

عندهم بذلـك . وإن كان شيئاً يتقرب بـه الى الله من طاعتـه بعقد ضمـير ، او اكتسـاب جوارح ، فكـان ذلك سـراً ، أحببت أن يطلعـوا عليـه ليحمـدوك ، ويقوم به جاهك . فلم تقنع باطـلاع الله عز وجـل ، ولا بثوابـه في عمل السـر ولا عمل العلانية ، واستوجبت من الله المقت على ذلك ، وسقـوط الجاه عنـده ، ثم مضت أيامك على هذا ، وأنت قانع بذلك ، راضٍ به ، غافـل متمادٍ مفـترٍ مخدوع ، وكانت هذه الحالة عندك أحسن أحوالك ، وأحزم أمورك .

ولـو استغنيت بالله وحده ، وباطـلاعـه عليـك ، وبجـزيـل ثـوابـه لأهـل طـاعته ، ومحبتـه لهم ، وتوفيقـه لهم ، وتسديـده إياهـم ، وراقبتـه ، لأغنـاك[1] عمن لا يملك لك ولا لنفسه ضـراً ولا نفعاً . وقـد رضي منك بـذلك ، وليتـك تضبطه .

فـأولى الفضـائـل بـك ، وانفعهـا لـك : أن تكـون نفسـك عنـدك دون قدرها ، وأن تكون سريرتك أفضل من علانيتـك ، وأن تبذل للنـاس حقوقهم ، ولا تـأخذ منهم حقـك[2] ، وتتجاوز عـما يكون منهم ، وتنصفهم من نفسـك ، ولا تطلب الانصاف منهم ، وانما هو التطهير ثم العمـل ، والتطهـير أولى بنا من العمل .

* * *

---

(١) ذلك لأن جزاء الله يكون حسب قدرة الله سبحانه وتعـالى وجزاء العبـاد حسب قدرتهم أيضـاً من ذلك كان جزاء الناس محدوداً مقيداً حسب مقاييس الدنيا ، وجزاء الله سبحـانه وتعـالى غير محـدود حسب مقـاييس الآخرة ، وكلما ازداد الإنسـان في العبـوديـة ازداد الله سبحـانـه وتعـالى في العـطاء حسب قدرته اللانهائية .

(٢) القصد من ذلك التسامح في الحقوق عن قدرة وقوة.

التطهير والعمل

والتطهير هو : الانتقال عن الشر إلى الأساس الذي يبنى عليه الخير . وقد يمكن أن يسقط البناء ويبقى الأساس ، ولا يمكن أن يسقط الأساس ويبقى البناء .

ومن لم يتطهر قبل العمل فإن الشر يمنع العبد من منفعة الخير ، فترك الشر أولى بالعبد ، ثم يطلب الخير بعد . والنفس تجزع من التطهير ، وتفر الى أعمال الطاعات ، لثقل التطهير عليها ، وخفة العمل بالطاعات بلا طهارة .

فإذا كانت الطهارات متقدمة أمام العمل بالطاعات بعد خفته عليها لمكان الطهارة ، فالحاجة الى معرفة الأسباب التي يطلب منها الخير وتوصل الى الله شديدة فمن كانت له عناية بنفسه ، وخاف عليها التلف ، طلب لطائف الأسباب بدقائق الفطن ، وغائص الفهم ، حتى يصل اليها .

فإذا وصل اليها تمسك بها ، وعمل عليها ، لأن المعرفة لآفات العمل [تكون] قبل العمل ، ومعرفة الطريق قبل سلوكه ، وحاجة العبد الى معرفة نفسه وهواها ، وعدوه ، ومعرفة ترك الشر أشد ان كان كيّساً ، وهو الى ذلك أفقر ان كان فطناً معنياً بنفسه .

لأنه ليس العمل بكل الخير يلزم العبد ، والشر كله لازم للعبد تركه ، ومن ترك الشر وقع في الخير ، وليس كل من عمل بالخير كان من أهله .

ومعرفة العبد للشر فيها علم الخير والشر ، وليس في معرفة الخير العلمان جميعاً ، لأن كل من ميز الخير من الشر فعزله ، واعتزله ، فكل ما

بقي بعد ذلك فهو خير كله . وقد يمكن أن يعلم الخير ولا يحسن أن يميز ما فيه من الشر من الآفات التي تفسده وتبطله ، لأن الخير مشوب ممازج بالشر ، والشر شر كله .

وقد أضل العدو الخبيث عن الله كثيراً من الناس بالخير ، وأضل كثيراً منهم بالشر ، وإنما أضل من أضل بالخير لقلة معرفتهم بما يمازج الخير من الشر ، فجهلوا معرفة ذلك وأوهمتهم انفسهم انهم على خير وهدى ، وطريق محبة ، وسبيل استقامة ، وهم ضالون عن الله ، عادلون عن طريق محبته ، وسبيل الاستقامة اليه .

وإنما ذلك من كثرة الآفات التي تلحق الأعمال ، وقلة علم العمال بها[1] فإنا لله وإنا اليه راجعون .

ما أغفل الناس عن أنفسهم ، وعن أهوائهم ، وعن عدوهم ، فنعوذ بالله من الغفلة والسهو والنسيان الذي يردي ، ويفسد الأعمال .

والحري أن تارك الشر يكون تركه له على قدر ما يعرف ويخاف من ضرره ، وهو قائم بفرض تقرب اقامته من الله زلفى . وطالب الخير يكون طلبه له على قدر ما يرجو ويعرف من منفعته ، و[يعرف][2] ان العلم شيء ، والعمل شيء ، والمنفعة شيء ، وربما كان علم ولم يكن به صاحبه عاملاً ، وربما كان علم وعمل ولم تكن منفعة ، وربما كان علم وعمل ومنفعة ، ثم يكون بعد ذلك ابطال واحباط[3] . وربما علم العبد وعمل وانتفع وسلم وتم .

الخصال التي يطلب منها الخير

فطالب الخير لا يستغني عن خمس خصال سوى ما يحتاج فيه الى علم

---

(١) العمال : العاملون .

(٢) ما بين الحاصرين ساقط من [ب]

(٣)أي إفساد وإبطال .

حدود الأعمال وأحكامها ، وأدائها الى الله خالصة مخلصة ، مشوبة بالصدق كما أمر وفرض وسن ، في الأوقات التي أمر وفرض .

فصاحب الخير العامل به لا يستغني عن : الصدق ، والصواب ، والشكر ، الرجاء ، والخوف .

أما الصواب : فالسنة . والسنة ليست بكثرة الصلاة تدرك ولا بكثرة الصيام والصدقة ، ولا بالعقل والفهم ، ولا بغرائب الحكمة ، ولا بالبلاغ والموعظة ، ولكن بالاتباع والاستسلام لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والأئمة الراشدين من بعده .

وليس شيء أشد تهمة ، ولا أكثر ضرراً[1] على السنة من العقل . فمتى أراد (العبد)[2] . أن يسلك سبيل السنة بالعقل والفهم خالفها ، وأخذ في غير طريقها ؟

وأما الصدق : ففي أربعة أشياء : تعمل العمل ، ثم لا تريد على ذلك جزاء ولا شكوراً إلا من الله تعالى ، ولا تبطله بالمن والأذى ، ومنه صدق اللسان في الحديث ، وقد يصدق في حالة بلسانه وهو عاص لله تعالى في صدقه ، وهو : المغتاب والنمام .

وأما الشكر : فمعرفة البلوى . فإذا عرف ان كل نعمة فهي من الله لا من غيره ، وإنما هي بلوى يختبر بها عبده ، شكر أو كفر ، وكل سوء صرف عن العبد فالله تعالى صرفه ، ليشكره عبده أو يكفره ، فهذا من الشكر .

فإذا عرف العبد هذا ، انه من الله ، وعده[3] من نعمه عليه ، ولم يدخل فيه أحداً : نفسه ولا غيرها ، فقد شكره . فالشكر متفاوت ، والناس فيه متباينون متصاعدون ، وهذا أدناه ، وأما أعلاه فلا يبلغه أحد ، وليس له حد .

---

(١) حذرا (الأصول) وما أوردناه أنسب للسياق .

(٢) ما بين القوسين ساقط من (أ)

(٣) أي حسبه كذلك .

ومنه أيضاً ، وهو يشبه ما وصفناه ، إلا أنه أصل الشكر : أن يعرف العبد : ان ما به من نعمة فمن الله ، بقلبه ، علم يقين ، لا تخالطه[1] الشكوك . فاذا عرف بقلبه ذلك ، ذكره بلسانه ، فحمده عليه ، ثم لم يستعن بشيء من نعم المنعم على شيء مما يكره المنعم .

وأعلا من ذلك من الشكر : ان تعد كل بلاء نزل بك نعمة ، لأن لله من البلاء ما أنزله بغيرك أشد وأعظم من الذي أنزله بك . والناس يحتاجون عند ذلك الى الصبر ، وهو قائم بالشكر[2] .

وأما الرجاء فهو : أن ترجو قبول الأعمال ، وجزيل الثواب عليها ، وتخاف مع ذلك أن يرد عليك عملك ، أو يكون قد دخلته آفة قد أفسدته عليك .

والراجون ثلاثة :

رجل عمل حسنة ، وهو صادق في عملها ، مخلص فيها ، يريد الله بها ، ويطلب ثوابه ، فهو يرجو قبولها وثوابها ، ومعه الاشفاق فيها[3] .

ورجل عمل سيئة ثم تاب الى الله منها ، فهو يرجو توبته وثوابه ، ويرجو العفو عنها ، والمغفرة لها ، ومعه الاشفاق ألا يعاقبه الله عليها .

فهذان رجاؤهما رجاء صادق .

---

(١) لاتخالطه : أي لا تشوبه ، أو تمتزج به .

(٢) فالمؤمن إن أصابه الخير فشكر له الجنة وإن نزلت به المصيبة فصبر فله الجنة . عجبي للمؤمن .

(٣) لأن العمل شيء وقبوله شيء آخر ونسأل الله سبحانه أن يتقبل منا ، قال تعالى : ﴿ فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال إنما يتقبل الله من المتقين ﴾[المائدة ٥/٢٧] .

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية : توعده بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه فأجابه بأنك أتيت من قبل نفسك بترك التقوى لا من قبلي وفيه اشارة الى ان الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقٍ لله راجع تفسير البيضاوي (ص ١٤٩) والقرطبي (١٣٤/٦) وكشاف الزمخشري (٤٨٣/١ ، ٤٨٤) .

وأما الثالث فهو : الرجل يتمادى في الذنوب ،وفي مالا يحبه لنفسه ، ولا يحب ان يلقى الله به ، ويرجو المغفرة من غير توبة ، وهو مع ذلك غير تائب منها ، ولا يقلع عنها[1] ، وهو مع ذلك يرجو .

فهذا يقال له : مغترٌ ، متعلق بالرجاء الكاذب ، والأماني الكاذبة ، واالطمع الكاذب . والقيام على هذا يقطع مواد عظمة الله من قلب العبد ، فيدوم اعراضه[2] عنه ، ويأنس بجانب مكر الله ، ويأمن تعجيل العقوبة . وهذا هو : المغتر المخدوع المستدرج .

وأما أمثالنا من الناس فينبغي ان يكون الخوف عندهم أكثر من الرجاء ، لأن الرجاء الصادق انما يكون على قدر العمل بالطاعات .

والخوف : على قدر الذنوب ، فلو كان الرجاء يستقيم بلا عمل لكان المحسن والمسيء في الرجاء سواء ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله** ﴾[3] . وقال : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾[4] .

ومعنى الحديث الذي جاء : « لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا »[5] ، لا ينبغي ان يكون خاصاً بين أهله . وهو مثل الحديث الآخر : « المؤمن كذي قلبين : قلب يرجو به ، وقلب يخاف به »[6] . فإنما هو إذا أحسن رجا ، واذا أساء خاف مع التوبة والندم والاقلاع .

---

(١) غير تائب منه ولا مقلع عنه (الأصول) .

(٢) ويدوم إعراضه (الأصول) .

(٣) البقرة (٢/٢١٨) .

(٤) الأعراف (٧/٥٦) .

(٥) هذا الحديث لم أقف عليه في مابين يدي من مراجع .

(٦) أخرجه الطبراني عن أبي هريرة وفي سنده نظر .

فأما من عرف نفسه بكثرة الاساءة فينبغي له أن يكون خوفه على قدر ذلك ، ورجاؤه على قدر ما يعرف من نفسه من الاحسان ، لأن الرجاء على قدر الطلب ، والخوف على قدر الهرب[1]

***

(١) ونحن نرى أن الصالحين أكثر الناس خوفاً وإشفاقاً على أنفسهم ممن سواهم تأمل قول الفاروق عمر : « الويل لعمر إن لم يغفر له» .

البلوى والاختيار

واعلم وأيقن أن الدنيا كلها : كثيرها وقليلها ، حلوها ومرها ، أولها وآخرها ، وكل شيء من أمرها ، بلوى من الله تعالى للعبد واختبار .

وبلواها وان كثرت وتشعبت واختلفت ، فهو كله مجموع في خلتين : في الشكر والصبر . فأما أن يشكر على نعمه ، أو يصبر على مصيبته .

قال الله تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملاً ﴾[1]

وقال : ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾[2] .

وقال : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم ﴾[3] .

وقال : ﴿ خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾[4] .

وقال : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة اتصبرون ﴾[5]

(١) الكهف (١٨/٧) .

(٢) محمد (٤٧/٤)

(٣) الأنعام (٦/١٦٥) .

(٤) هود (١١/٧) .

(٥) الفرقان (٢٥/٢٠) .

وقال : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم** ﴾[1] .

واكثر من ذلك في كتاب الله تعالى . وإنما كانت بلوى آدم عليه السلام أقل من آية في كتاب الله تعالى : ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾[2] . وهو كله لك بلوى . وأن أكثر ما بلي به العبد من أهل الدنيا : الناس . وافتن الناس لك ، وأكثرهم لشغلك . وانما هو بمعارفك منهم . وأشغل معارفك لك ، وأكثرهم عليك فتنة : من أنت بين ظهرانيهم ، ينظرون اليك ، وتنظر اليهم ، ويكلمونك ، وتكلمهم . فانك من لم يعرفك من أهل زمانك ولم تعرفه ، ولم تسمع به ، كأنك لم تبتل بهم ، وكأنهم لم يبتلوا بك ، وكأنهم لم يكونوا في هذه الدنيا التي أنت فيها .

فارجع في صبرك الى الله ، واستعن به ، وانقطع اليه ، واستأنس بذكره ، واقلل من الخلطاء ما استطعت ، بل اترك القليل ايضاً تسلم ، لقول الله تعالى : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ، وكان ربك بصيراً** ﴾[3] . فاهرب من الفتنة .

فرجع صبرك الى معارفك ، ومن أنت بين ظهرانيهم ، فنظرك اليهم فتنة ، ونظرهم إليك فتنة ، وكلامك معهم فتنة ، وكلامهم معك فتنة ، وجفاؤك لهم فتنة ، وجفاؤهم لك فتنة ، وكرامتهم لك وكرامتك لهم فتنة لك [4] .

واعتبر ذلك بموضع تمر فيه ، فيه معارف ، وموضع تمر فيه ليس فيه أحد يعرفك .

وهكذا شهوات المطعم والملبس ، وشهوات العين : ما يحل النظر اليه ومالا يحل النظر اليه ، مما كان من ذلك في غير البلدة التي انت فيها ، فأنت

---

(١) محمد (٤٧/٣١) . (٢) البقرة (٢/٣٥) .

(٣) الفرقان (٢٥/٢٠) راجع تفسير الامام القرطبي (١٨/ ١٤٤)

(٤) فتنة : ابتلاء .

منها سليم ، وفتنتها مصروفة عنك إن شاء الله ، لأن مؤونتها ساقطة .

وهكذا أنت في جميع أعمالك .

وعملك الذي تعمل انما هو فتنة ، انت فيه تريد ان توقي[1] أعين الناس ، وأكثرهم من يعرفك بالخير ، فأعمالك لك فتنة . ان حججت فكنت خالياً ليس معك من يعرفك بالخير وتعرفه كان أسلم لك ، وإلا فهي فتنة ، فانظر كيف تسلم منها . وان خرجت من بلدة انت فيها معروف بالخير ، فخرجت منها وهم لا يعلمون أين تريد ، فهو أسلم لك ، وان علموا فهي فتنة، فانظر كيف تسلم منها .

وكذلك الغزو ، وبلوى أهل الغزو ، وما ينويهم في مغازيهم من الفتنة والبلية اعظم من بلية غيرهم ، وأعظم من الذين يعملون بأعمال البر ، وهم قبل أن يدخلوا في هذه الأشياء في عافية ، فاذا دخلوا فيها جاءت الفتنة ، من التحاسد بعضهم لبعض ، وطمعهم في الحملان[2] . وما يجعل الناس في سبيل الغزو[3] .

ولقد سمعت رجلاً من المذكورين من أهل الغزو ، وممن له غناء عند لقاء العدو ، واسم عظيم في المطوعة يقول : الخيل قد خرجت ، ولم يقض لي[4] الخروج معها ، أما السلامة فأحب أن يسلموا ، ولكني أكره أن يغنموا وليس أنا فيهم .

ولقد رأيت من يغار على ما يقوى به بعض الغزاة حيث لم يعط هو وأعطي غيره كما يغار الرجل على بعض حرمه . ولقد رأيت من غزا ولم يغنم ود أنه لم يكن غزا .

---

(١) أنت فيها تريد أن توقي فيها (أ) .

(٢) الحملان : ما يحمل عليه الغازي من الخيل والإبل .

(٣) أي ما يتبرع به الناس للمحاربين الغزاة .

(٤) ولم يقص له (ب) .

ولا يؤمن يا أخي على كل من دخل في عمل من أعمال الدنيا والآخرة جميعاً إذا لحقتهم في عملهم الآفات التي تفسد الأعمال ، وأن يدخل عليهم الشيطان فيها من العيوب والفتن مثل هذا واكثر من هذا .

فليحذر الرجل على كل عمل يعمله من أعمال الدنيا والآخرة ، وليراقب الله فيه ، ويعامله بضمير خالص ، ويحذر اطلاع الله على فساد في ضميره ، ويحذر اطلاع المخلوقين على عمله ، فإن كناس الحشوش[1] أكرم من هذا الصائم ، وهذا المصلي ، وهذا القائم ، وهذا الغازي يكره أن ينال المسلمون من غنائم الروم ، والجالس في بيته ببغداد يحب أن يغنموا منهم .

فاحذر رحمك الله من قرب منك وقربت منه ، فإن الذين بعدوا منك وبعدت منهم سلموا منك وسلمت منهم ، يود أقوام غداً انهم لم يكونوا سمعوا بآذانهم كثيراً من أعمالهم التي هي في رأي العين يرجى لصاحبها عليها الثواب الجزيل ، والدرجات الرفيعة ، ويغبطون من لم يكن عمل مثل ما عملوا كثيراً من حسناتهم ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون[2] .

يقال : انها أعمال عملوها من أعمال البر كانوا يرون انها منجيتهم ، فكانت هي مهلكتهم ، لما مازجها من الرياء ، وحب المحمدة من المخلوقين ، واتخاذ المنازل بالطاعات ، وإقامة الجاه ، وحب القدر ، والميل الى ثواب المخلوقين .

فلما وردوا على الله عز وجل وجدوه قد أحبط أعمالهم وهم لا يشعرون ، لأنهم كانوا قد تعجلوا ثواب أعمالهم من المخلوقين في الدنيا ، فافتضحوا ، وفضيحة ما هناك باقية ، ولم يجدوا من ثواب أعمالهم إلا كما وجد صاحب السراب وصاحب الرماد .

---

(١) كناس الحشوش : من يحمل فضلات الناس للعراء .

(٢) فهم حسبوا شيئاً ووجدوا أنفسهم على نقيض ما ظنوا فضاعت أمنياتهم مع السراب .

فليس اسم الأعمال يراد ، ولا تزيين ظاهرها ، ولكن تقوى الله ، وما يقرب اليه زلفى ، فليت بين العبد وبين كل عمل يباعد من تقوى الله ومن الله بعد المشرقين .

قال العدو الخبيث : ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم** ﴾[1] . فلو لم يكن في الكتاب من صفات إبليس إلا هذا قد كان ينبغي للناس أن يحذروه .

ولو نظرت في أكثر الناس لوجدت أن أكثرهم إنما يؤتى من قبل البر ، وقلة العناية بتصفية الأعمال ، وما قد استحلت النفس من حب المحمدة من المخلوقين ، وقد يؤتى قوم كثير من قبل الآثام ، إلا أن علامة الفتنة في الناس جميعاً مختلفة[2] . واكثر الناس انما يعرفون من قد فتن بالآثام ، ولا يعرفون من قد فتن بالبر ، إلا القليل من الناس من أهل النور والفطن والفراسة والتوسم والكياسة .

وذلك ان الذي يعمل بأعمال البر وهو يحب فتنتها أكثر من الذي يخاف فتنتها ، والذي يجهل فتنتها اكثر من الذي يعلم فتنتها .

ومن الناس من يعلم فتن الأعمال ومبطلاتها ، ثم يغلبه الهوى ، ومنهم من يعلم وتقل عنايته فيغفل .

واعلم ان الذي يعمل وقد علم الآفات التي تفسد الأعمال[3] ، وهو مع ذلك مشفق خائف من الآفات ما يكاد يسلم إلا من عصم الله تعالى ، فكيف الذي يجهل ويغفل ، ويغلبه الهوى ، ويحب دخول الآفة ؟

---

(١) الأعراف (٧ / ١٧) ولاحظ وتدبر ان الشيطان لا يستطيع أن يأتي من فوقهم حتى لا يحول بينهم وبين رحمة الله . راجع الطبري (٣٤١/١٢)

(٢) وذلك حسب أحوالهم فمنهم من يفتن في المال ومنهم من يفتن في الأولاد والأهل وفيهم من يفتن في النساء .

(٣) فقد يعمل الإنسان عملاً صالحاً يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى ، ولكنه يقرنه بما يبطله ويمنع قبوله ، فيذهب أدراج الرياح كأن لم يقدم شيئاً ، قال تعالى : ﴿ **قولٌ معروفٌ ومغفرة ، خير من صدقة يتبعها أذى** ﴾[البقرة ٢ /٢٦٣] :الأذى يمنع ثوابها .

وقد طلبت الدنيا في زماننا خاصة بكل جهة : بالبر والأثم جميعاً افتتاناً ، فاحذر فتنة البر والاثم جميعاً ، لا ينزل بك ما نزل بغيرك في الترك والطلب . فلتكن همتك في النظر في مرآة الفكر كالهمة بالعمل[1] ، واكثر من ذلك ، فإنه ليست شهوات الذنوب والسيئات ، وشهوات المطاعم والملابس والبناء والمراكب والمناكح والذهب والفضة بأغلب على أصحابها من شهوات الجاه وحب الرياسة ، وإقامة القدر ، واتخاذ المنزلة ، وقبول الأمر والنهي وقضاء الحوائج ، وحب العدالة ، عند الجيران والأصحاب والأخوان ، والمدحة على اصحاب البر في حسناتهم .

وقد تجد الرجل يغلب شهوة الذنوب ، فيترك الذنب ، ويصير الى أعمال البر ، فيضعف عند تصفيتها ، وتغلبه شهوة ما فيها ، فيعمل حسنات كثيرة بقوة واقتدار عليها ، وظمأ شديد وسهر ، ولا يقدر على أن يغلب شهوته على تصفيتها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما قد نزل بنا ، وما أعظم خطرنا ؛ ما أغفلنا عن عظيم الخطر .

ثم اعلم اني لست أزهدك في طلب أعمال البر ، لأن كل عمل لا تعمله اليوم لا تجد ثوابه غداً ، ولكني أحذرك خدع الشيطان ، وهوى نفسك الأمارة بالسوء .

وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، وقد قال الله تعالى : **﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾**[2] .

وقال : **﴿ ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾**[3] .

---

(١) لان الفكر متصل بالعمل إتصالاً وثيقاً لا تنفصم عراه ، والقصد من الخواطر المتصلة بالعمل هي النية . فلا ثواب إلا بالنية ، والأمور بمقاصدها ، ونية المرء خيرٌ من عمله .

(٢) النحل (١٦/٩٨) .

(٣) فاطر (٦/٣٥) . يقول الطبري في تفسير هذه الآية : إنما يدعو شيعته ليكونوا من المخلدين في النار التي تتوقد على أهلها : راجع الطبري (٧٨/٢٢) .

وقـال : ﴿ ان النفس لأمـارة بـالسـوء إلا مـا رحم ربي ، ان ربي غفـور رحيم ﴾[1]

وقال : ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾[2] .

وقـال : ﴿ فـطوعت لـه نفسـه قتـل أخيـه فقتله فـأصبـح من الخاسرين ﴾[3] .

وقال : ﴿ بل سولت لكم انفسكم أمراً ، فصبر جميل ﴾[4] .

وقال : ﴿ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس بـه نفسه ﴾[5]

وقال : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾[6] .

وقـال : ﴿ ومن اضـل ممن اتبـع هـواه بغـير هـدى من الله ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[7] .

وقال : ﴿ واتبع هواه وكان امره فرطاً ﴾[8] .

وقـال : ﴿ وكذبـوا واتبعـوا أهـواءهم ﴾[9] . مـع أشيـاء كثيـرة في ذكـر عـداوةإبليس ، وذم النفس والهوى .

قلت : أرى من النـاس أشياء يعـاب مثلها ، وأحب أن أسلم من التعيـر والازدراء والعيب فلا أدري أسلمت منه نفسي أم لا .

فقال : ان الانسان عند معرفة عيب نفسه أبله ، وعند معرفة عيب غيره جهبيذ . فيحتقر عيب[10] أهل كل صناعة ، وأهل كل عمـل من أعمال الـدنيا والآخـرة ، ويحتقر[11] عيب من هـو في مثل مـرتبته ، ويستعـظم ذلـك من كـل

(١) يوسف (١٢/ ٥٣) .

(٢) طه (٢٠/ ٩٦) .

(٣) المائدة (٥/ ٣٠) .

(٤) يوسف (١٢/ ٨٣) .

(٥) ق (٥٠/ ١٦) .

(٦) ص (٣٨/ ٢٦) .

(٧) القصص (٢٨/ ٥٠) .

(٨) الكهف (١٨/ ٢٨)

(٩) القمر (٥٤ /٣) .

(١٠) فلا يحتقر (الأصول) .

(١١) ولا يحتقر (الأصول) .

من رآه منه ، فإذا أتى على عيب نفسه جازه[1] الى عيوبهم كأنه أعمى عنه لم يره .

وهو يطلب العذر لنفسه ، ولا يطلبه لغيره ، فهو في طلب عذرها جهبيذ ، وفي طلب عذر غيرها أبله ، وهو يضمر عند ذلك لصاحبه ما يكره أن يضمر له غيره لو رأى منه مثل ذلك العيب .

فإذا رأيت عيباً أو زلة أو عثرة من غيرك ، فاجعل نفسك مكانه ، ثم أنظرالذي كنت تحب أن يستقبلك به لو رأى منك مثل الذي رأيت منه ، وأضمر ذلك له في نفسك ، فإنه يحب منك مثل ما كنت تحبه منه .

هكذا إذا رأيت ما يستحسن ، فأردت أن تعرف علم السلامة من الحسد له .

وبالحري[2] . أن يكون أخف الناس عليك عند الزلة : من يطلب لزلتك عذراً ومخرجاً ، فإذا لم يجد للعذر موضعاً ساءه ذلك ، وأخفى مكانه ، وعندحسنتك يسر ، فإن لم يسر لم تسوءه . فهكذا فكن لهم عند الزلة وعند الحسنة . فإذا كنت كذلك فلا تحب ازالة نعمة أنعمها الله على أحد في دين ولا في دنيا ، ولا تحب أن يقيم أحد على معصية الله تعالى ، ولا تحب أن يهتك ستره عند زلته ، فانك إذا فعلت ذلك بقلبك ، زال عن قلبك الحسد ، عن الدين والدنيا جميعاً .

ومتى غلبت عليك المسابقة الى ضميرك بسوءالمحضر ، فلا تغلبن على مشاهدته بحسن المراجعة في جميع أمورك .

واعلم انك مسبوق الى ضميرك بالحسد ، وسوء الظن ، والحقد ، فاجعل المراجعة شغلاً لازماً ، وكن وقافاً ، كما قال الأول : « المؤمن

---

(١) جازه : تركه .

(٢) وبالحري : بالأحرى والأجدر .

وقاف » . وليس كحاطب ليل[1]

فقف وطالع ضميرك بعين حديدة النظر ، نافذة البصر ، فإذا رأيت أمراً محموداً فأحمد الله ، وامض ، وإذا رأيت مكروهاً إداركتهبحسن المراجعة ، واستقصيت[2] فيه ، فإن الذي دخل بيتك ولم يستأذنك سوف يختبىء فيه ، وان كان مظلماً فأنت لا تشعر ، إلا أن يكون معك سراج من العلم مضيء واضح ، ويكون معك من العناية بأخذه والانكار لما دخل فيه : ما لا صبر له عليه ، ولا طاقة له به .

ولو قد جربت لعرفت ان الذي أقول لك كما أقول : يدخل داخل منزلك بغير اذنك ، وهو داخل لا يؤمن أن يخرب المدخول عليه . فإن رأى الداخل منك توانياً وتهاوناً كان هو المقيم بالمنزل ، المدبر له ، فاستولى على حر بيتك وعلى حرمتك . وان رأى منك انكاراً فيه ضعف اختفى لك يلتمس سهوتك وغفلتك ، فاذا وجد فرصته خرب عليك ما كنت أصلحت ، وهدم ما بنيت ، فافهم ان كنت تفهم ، واقبل من الناصحين ان كنت تقبل .

فلو رحلت في ما أخذت المطايا ، فبلغت حيث تبلغ من البعد ، وانفقت في سبيل ذلك حر بيتك ، كان الذي أخذت أكثر من الذي انفقت وتعبت فإنك تجد الخير الكثير في ميزانك يوم القيامة بصدق المراجعة ومبادرتها قبل أن تبرد عنك حلاوتها ، فإنها موهبة عظيمة من مواهب الله تعالى أكرم بها أهل خاصته[3] ، وعظم النعمة عليهم فيها ، فإن عظم النعة على قدر الحاجة .

فانظر هل راجعت نفسك وأمرك إلا وقد وجدت فيه موضع حرمة ومصلحة ، أو وجدته مفسوداً بعينه ، فلو لم تلحقه بالمراجعة لكان ذاهباً الى يوم القيامة .

---

(١) حاطب الليل : الذي يجمع الحطب وهوام الليل في الظلمة فلا يمكنه تمييز الجيد من الرديء .

(٢) استقصيت فيه : تدبرت وتأملت .

(٣) من الأتقياء الصالحين أصحاب النفوس اللوامة التي أقسم بها سبحانه وتعالى لشرفها عنده .

واعلم اني انما اكثر عليك وعلى نفسي من ذكرها لما قد استبان لي من الاضطرار والحاجة الى المراجعة . فلو قد تعلقت بشيء من الخير فيها يكون ونسبتها ، وإلا فلا ، وما تركك لها إلا كالمستأنس لعدوه[1] ، والمسلم نفسه اليه ، فهلكت وأنت لا تشعر . وان كنت متهاوناً بما أقول لك فإن أكثر حاجتك اليه في صلاة الفريضة ، ثم بعدها ، وهلم جرا في جميع أمورك .

ولو كنت ممن يتفقد أمره لعلمت ماذا دخل عليك من الندامة والحسرة ، حيث فارقتك المراجعة في صلاة الفريضة ، فلم تدر ماذا قرأ امامك ، ولم تدر أفي فرض كنت أم في نافلة ، في صلاة كنت أو في غيرها ، وأنت في رأس العين ممن يناجي ربه ، وقدْ أصغيت بأذنيك الى امامك ، وتخشعت بوقوفك ، وفرغت قلبك لاستماع ما يقرأ عليك امامك من كلام ربك في صلاة فريضتك ، التي ليس شيء أوجب عليك منها ، فرجعت منها وقد ظهر منك ما وصفنا ، وأنت كمن لم يشهدها لقلة ضبطك بالمراجعة لنفسك فيها .

ولعل الذي حضرت منها بقلبك أو عقلته[2] فلم تسه عنه ، لو قيل لك : أتحب أن يكون ذلك منك كما كنت ساهياً ولك مائة الف دينار لقلت : لا .

فاعتن الآن بتعاهد هذه المراجعة على قدر ما عرفت من حاجتك اليها ، فإنما لك من عمرك تيقظك ، وتيقظك : مراجعة ما فيه منفعتك وقربتك ، والمصير اليه بالعقل ، وما سوى ذلك غفلة وسهو يؤديان الى شهوة فيها غليان قلبك ، وفي ذلك موافقة نفسك الأمارة بالسوء ، والهوى المضل عن سبيل الله ، العادل بأهله عن طريق محبته ، وفي ذلك توثب العدو الخبيث الذي لا يألوك خبالاً ، الذي يجري منك مجرى الدم[3] ، الذي يراك هو وقبيله من حيث لا تراهم .

---

(١) وهل هناك أخسر من المستأنس بعدوه ؟!

(٢) عقلته : وعيته .

(٣) أي شديد القرب منك .

قال مالك بن دينار : « قلوب الأبرار تغلي بأعمال البر ، وقلوب الفجار تغلي بأعمال الفجور » . فتعاهد أمرك بالمراجعة[1] ، فإن رأيت مكروهاً أصلحته وتحولت عنه ، وإن رأيت غير ذلك حمدت الله ، وكانت عنايتك بذلك زيادة لك ، وقربة . وإذا رأيت لك عناية بالمراجعة ، فاعلم انها نعمة وقربة من أعظم نعم الله ، وأحق من أحسنت مصاحبته نعم الله التي مفتاح خزائنها رحمة الله ، فالتمس الزيادة منها بالشكر عليها ، وأحق من أسأت صحبته نفسك الأمارة بالسوء ، والإساءة اليها : مخالفتها ، فإن في مخالفتها موافقة مرضاة الله .

قلت : فمن أهل الأرادة ؟

قال : من لم يتخط عيباً ولا عورة الى نافلة[2] .

قلت : فما حفظ اللسان ؟

قال : الصمت .

قلت : فما الاحتياط في التحفظ عند الكلام ؟

قال : ترك ذكر عيب من غيرك ترجو على ذكره اذا ذكر به الثواب ، لكيلا يخرجك ذلك الى ذكر عيب من غيرك تخاف على ذكره العقاب . وخذ نفسك بهذا الباب أشد الأخذ ، واحمل عليه من الناس من استرشدك ، وأراد مثل الذي تريد ، فإن العبد أكثر ما يؤتى من قبل التهاون باليسير[3] ، وهو الذي يوقع في الإثم الكبير ، والتهاون باليسير هو الأساس الذي يبنى عليه الكثير ، فيكون أوله كان تحفظاً ، ثم صار انبساطاً ، ثم صار من الانبساط الى ذكر اليسير ، ثم صار من اليسير الى ما هو اكثر منه ، فلا تشعر حتى ترى

---

(١) أي تولى أمرك بمراجعة نفسك أولاً بأول .

(٢) أي أن التطهير أولى من النوافل .

(٣) فلا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار فالإصرار على الصغائر يجعلها كالكبائر .

نفسـك حيث كنت تكـره ان تـرى فيـه غيـرك ، ففي تـرك اليسـير تـرك اليسـير والكثير .

وأقـوى الناس عـلى ذلـك وأصـدقهم عـزمـاً هـو الـذي إذا عـزم أمضى عزمه ، ولم يلو ، وأضعف النـاس في ذلك أضعفهم عـزماً[1] ، وهـو الذي يعزم ثم يحل عزمـه ، ولا يكاد يمضي عـزماً . فهـذا الذي يتـلاعب به العـدو والهوى والنفس ، ليس لـه عنـدهم قـدر ، لكثـرة معـرفتهم بتنـاقص عـزمـه ، وقلة استعماله له ، وأولوا العزم من الناس أفاضل الخلق من كل طبقة .

---

(١) لقلة رصيده من اليقين الإيماني .

التوبة وحسن الظن بالنفس

قلت : فمن أرجى الناس لقبول التوبة منهم ؟

قال : اشدهم خوفاً ، وأصدقهم ندامة على ما كان منه ، وما شاهده الله واطلع عليه من زلله وخطله[1] ، وطول غفلته ، ودوام اعراضه ، وأحسنهم تحفظاً في مايستقبل . وان استووا في ذلك فأشدهم اجتهاداً في العمل .

لأن علامة صدق الندم على ما مضى من الذنوب : شدة التحفظ فيما بقي من العمر ، ومواثبة الطاعة بالجد والاجتهاد ، واستقلال كثير الطاعة ، واستكثار قليل النعمة ، مع رقة القلب ، وصفائه وطهارته ، ودوام الحزن فيه ، وكثرة البكاء ، والتفويض الى الله تعالى في جميع الأمور ، والتبري اليه من الحول والقوة ، ثم الصبر بعد ذلك على احكام الله عز وجل ، والرضى عنه في جميعها ، والتسليم لأموره كلها .

وقال لي : قد علمت من أين غلطت ، أحسنت الظن بنفسك ، فتاقت الى درجات المحسنين بخلاف سيرتهم من غير انكار منك عليها لمساوىء أعمالها ،ولا دفع لما ادعته من أعمال الصادقين . وأسأت الظن بغيرك ، فأنزلتهم في درجة المسيئين اغفالاً منك لشأنك ، وتفرغت للنظر في عيوب غيرك .

فلما كان ذلك منك كذلك ، عوقبت بأن غارت عيون الرحمة والرأفة من قلبك ، وانفجرت اليه أنهار الغلظة والقسوة ، فأحببت أن تنظر الى الناس

---

(١) الخطل : خطأ الرأي .

بالإزراء[1] عليهم ، والاحتقار لهم ، وقلة الرحمة ، وأردت أن ينظروا اليك بالتعظيم والمهابة والرحمة ، فمن وافقك منهم على ذلك نال منك قرباً ومحبة ، ونلت أنت من الله تعالى بعداً وسخطاً ، ومن خالفك فيه ازداد منك بعداً وبغضاً ، وا زددت انت من الله بعداً وسخطاً .

وأطلت في ذلك كله أملك ، فطاب لك المسير في طريق التسويف ، ومدارج الحيرات ، فاشتدت رغبة نفسك ، واستمكن الحرص من قلبك ، فعظمت لذلك في الدنيا رغبتك ، وشحت فجمحت الى شهواتها ، واحتوشت قلبك لذاتها ، فحال ذلك بينك وبين ان تجد حلاوة سلوك طريق الآخرة ، فقلبك حيران على سبيل حيرة[2] ، قد اشتبهت عليك سبل النجاة ، وشقق حجاب الذنوب ، فأنست لقربها ، وطاب لك شم ريحها[3] ، فوصلت بذلك الى محض[4] المعصية ، فادعيت ما ليس لك ، وتناولت ما يبعد مرامه من مثلك .

ثم أخرجك ذلك الى ان تكلمت لغير الله ، ونظرت الى ما ليس لك ، وعملت لغير الله ، فكنت مخدوعاً مسبوعاً[5] . عند حسن ظنك بنفسك وأنت لا تشعر ، ومستدرجاً من حيث لا تعلم ، فكان ميراث عملك الخب[6] ، والجريرة[7] ، والغش ، والخديعة ، والخيانة ، والمداهنة[8] ، والمكروه ، وترك النصيحة ، وأنت في ذلك كله مظهر لمباينة ذلك .

فمن كانت هذه سيرته ، فلا ينكر أن يبدو له من الله ما لم يكن

---

(١) الإزراء عليهم : الإزدراء بهم ، والاستهانة بأقدارهم .

(٢) أي على طريق الحيرة .

(٣) أي طابت ريحها لك .

(٤) محض المعصية : أي حقيقتها وخلاصتها ، والمحض من الشيء هو صريحه وخلاصته .

(٥) مسبوعاً : متعرضاً للسباع من شدة الخطر .

(٦) الخب : اللئيم الخادع .

(٧) الجريرة: الإثم والكذب .

(٨) المداهنة : الملاينة في الظاهر وإضمار النقيض في الضمائر .

يحتسب . فلو كـان لك يـا مسكين أدنى تخـوف لبكيت على نفسـك بكاء الثكـلى المحبة لمن أثكلت ، ونحت عليها نياحة الموتى حين غشيك شؤم الذنوب . ولو بكى عليـك أهـل السموات وأهـل الأرض لكنت مستـوجبـاً لـذلـك ، لعـظم مصيبتـك ، ولو عـزاك عليها جميـع الخلق تعـزيـة المحـروب المسلوب[1] لكنت مستحقاً لذلك ، لأنك قـد حربت دينـك ، وسلبت معرفتـك بشؤم الذنـوب ، فركبك ذل المعصية ، وأثبت أسمك في ديوان العاصـين ، واستوحش منـك أهل التقوى إلا من كان في مثالك .

فأخذ الذين أرادوا الله وحده في طـريق المحبة لـه ، وسلكوا سبيـل النجاة اليـه ، وأخـذت في غـير طـريقهم ، فملت حـين خـالفت طـريقهم الى غيـره ، فبقيت متحيـراً ، وعن وجـع الإصـابـة متبلداً ، وبمثـل هـذه الأسبـاب التي اشتملت عليها طريقتك يستدل على خسران القيامة ، وبـالله نعوذ ، وإيـاه نسأل عفواً وتقريباً منه مع المحسنين انه لطيف خبير .

قلت : أمـا تخـاف ان تكـون هـذه المعـرفـة حجـة عليـك ، والاشتغـال بوصفها خدعة من الشيطان ، ومشغلة وصداً عن نفعها .

فقـال : واسـوأتـاه من غفلة واصفهـا عن محـاسنهـا ، ومن رام رمى فلم يخـطىء حيث أراد . فأمـا الأمن فمحـرم ، وأمـا الخـوف ففـرض[2] . عـلى من يؤمن بالله واليوم الآخـر ، بالـوعد والـوعيد ، وقـد علمت ان القصد الى نفس المحبة ، والعناية بها ، أبلغ لصاحبه ، واكثر له في المنفعـة منه بـوصف المحبة ، لأن طلب نفس المنفعـة غـير طلب وصف المنفعـة ، وانما اشتغلت بـالـوصف اضـطراراً حيث رأيت نفسي خارجـاً منها جميعـاً ، فـاعتنيت بمعـرفـة وصفهـا ، والهـداية اليهـا[3] ، رجاء ان يـوصلني ذلك الى نفس المنفعـة ، والهدايـة اليها ، والله المستعان على ما نقول وما نضمر .

(١) المسلوب : الذي سلبه اللصوص .

(٢) والله سبحانه لا يجمـع على عبـده خوفين ولا أمنين ، إذا خـافه عبـده في الدنيـا أمنه في الآخـرة ، وإذا آمنه في الدنيا خوَّفه في الآخرة ، وكذلك نرى الصالحين أكثر الخلق خوفاً وخشية من الله .

(٣) الهداية اليها : الإرشاد اليها .

وان العبد بين تسع مخاوف :

فأولاها : ان يخاف ويدعو الله ، ويتضرع اليه : ألا يكله الى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلماً وعدواناً .

والثانية : ان يخاف من كفران النعم التي قد غلب عليه البطر بها[1] ، فأشغله عن الشكر عليها .

والثالثة : خوف الاستدراج بالنعم وتواترها[2] .

والرابعة : خوف أن يبدو له غداً من الله ما لم يكن يحتسب في طاعاته التي يرجو ثوابها ، ولم يعدها من ذنوبه .

والخامسة : الذنوب التي عملها ، واستيقن بها فيما بينه وبين الله تعالى .

والسادسة : تبعات الناس قبله .

والسابعة : انه لا يدري ما يحدث له في بقية عمره .

والثامنة : أن يخاف تعجيل العقوبة في الدنيا ، والنكال فيها قبل الفوت .

والتاسعة : الخوف من علم الله تعالى فيه ، وفي أي الدارين أثبت اسمه في أم الكتاب فاحذر الذنوب ، فإن شؤمها قريب ، وظلمتها شديدة ، واحذر الحسنات التي تباعد بينك وبين طريق الصالحين ، فما أقرب القارىء المتعبد بغير معرفة : أن يتكبر على عباد الله عز وجل ، ويمتن على الله سبحانه بالحسنات التي لو وكله اليها كان فيها هلاكه ، وما أقربه من أن يطلب الناس

---

(١) البطر : احتقار الحق ودفعه عنوة وتجبراً .

(٢) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملي لهم ان كيدي متين ﴾[الأعراف ٧ /١٨٢ ، ١٨٣] وهذا الاستدراج قد يكون بتواتر النعم عليهم فيظنوا انها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطراً وإنهماكاً في الغي حتى تحق عليهم كلمة العذاب . راجع تفسير البيضاوي ص ٢٠٥ .

بما أراده الله منهم من الطاعة له ، والاجلال والاعظام ، والقدر العظيم .

ولا يؤمن على القارىء غير الفقيه ان يسيء اليهم ، ويطلب منهم الاقرار بالاحسان ، ويعطيهم من نفسه ما أراد الله منه . ان الله تعالى أراد منه : « أن يتزين له ، ويتعبد له ، ويخلص له العمل وحده ، فأعطى هو للمخلوقين ذلك من نفسه »[1] .

* * *

(١) وليس ثمة أخطر على الإسلام من عابد يتعبد من غير فقه لأن الفتنة به والفتنة فيه والفتنة منه غير مأمونة العواقب لا سيما على الدهماء من الناس .

المـدح والـذم

قلت : الـرجـل يقـول : انـه ممن لا يـريـد بعمله جـزاء ولا شكوراً ، وهو معروف بأعمال البر : بـالصلاة والصـدقة والصيـام وغير ذلـك ، وقـد مدحـه قوم فسـره ذلك جـداً ، وفرح بـه وذمه آخـرون فسـاءه ذلـك جـداً وكرهه ، حتى عـرف من نفسه التغـير لكلا الفـريقين جميعـاً ، كيف يعرف هـذا نيتـه ، وحب المحمدة وكـراهية المـذمة ثـابت في قلبـه ، والمـرائي يحب الثنـاء ، ويكره المذمة ؟

قال : انه لا يجب عـلى الناس ان يكـرهوا الثنـاء الحسن والمحمدة ، ولا يجب عليهم أن يحبـوا المذمـة ، عملوا الحسنـات أو لم يعملوا ، اذا لم يكن ذلـك منهم من معنى فـاسد ، لأن المـرائي[١] وان كـان يـريـد عـلى أن يحب المحمـدة ويكره المذمة ، فإن الصادق لا يجب عليه أن يكره الثناء ويحب المذمة .

وان اكثر الصادقين قد مدحوا ، واثني عليهم ، ولم يضـرهم ذلك شيئـاً ، وإنمـا الفرق بينهـما : أن المرائي : ارادتـه وأمله في عمله جاه الـدنيـا ، والمنـزلـة عند أهلها ، فـأفسد عمله بنيتـه وارادته ، نـال الذي أراد من ذلـك أو لم ينله ، حمدوه على عمله أو لم يحمدوه ، ذموه أو لم يذموه . وغـير المرائي انمـا كره المـذمة لحال ما فيهـا من الكراهيـة ، مثل السقـوط من أعين النـاس ، والبغضة والمقت من المؤمنين ، وأشباه ذلـك . والثناء الحسن والقـول الجميل أحبـه لموضـع ستر الله ، وما جاء من الرجاء في الثنـاء الحسن والقول الجميـل ،والمحبة من النـاس ،

(١) المرائي : الذي يرائي الناس ، ويحفل بثنائهم عليه وحمدهم له .

ومودتهم له ، وكان اعتقاد نيته وعزمه في أول أمره وآخره : ألا يريد بذلك إلا وجه الله وحده والدار الآخرة ، حمدوه أو ذموه ، أحبوه أو أبغضوه .

وربما كان اعتقاد الرجل عند عمله : إرادة الآخرة ، ثم ينتقل قليلاً قليلاً إلى ارادة الدنيا . وذلك انه شيء خفي ، والعامة تقل معرفتهم به ، وعنايتهم بذلك ، وتكثر غفلتهم وسهوتهم عنه[1] ، وقد كان ينبغي ان تكون عناية المؤمن بذلك أكثر من عنايته بما يعمل من الأعمال الظاهرة ، لأن أعمال الجوارح لا يمكنه أن يقلبها ولا يغيرها عن حالاتها ، والنية لا يؤمن عليها الفساد وان كانت صادقة صحيحة : ان تتحول من أحسن ما كانت عليه الى أقبح ما تكون عليه ، وأفسدها لعمل صاحبها .

وقد قال النبي ﷺ : « الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى »[2]. فالأعمال بالنية تكون ، وعن النية تكون ، فالعبد أحوج إلى معرفة النية ، ومعرفة فسادها ، إذا كانت الأعمال انما تصح بتصحيحها ، وتفسد بفسادها ، وأن جميع ما نذكره انما هو وصف للعمل ، وللحقيقة والصحة علامات ودلالات غير هذا .

وان الأعمال كلها عملان : عمل تمكن فيه النية ، وعمل لا تمكن فيه النية . والعمل غير طاعة الله ، أو على غير سنة رسول الله ﷺ لا تمكن فيه النية ، والذي تمكن فيه النية : عمل في طاعة الله على السبيل والسنة . والناس فيه صنفان : صنف يعرفون النية ، وصنف لا يعرفون النية . والذين يعرفونها صنفان : صنف يقنعهم النظر فيها بالجزاف ، والأماني ، وصنف لا يأتمنون أنفسهم عليها ، ولا يعنون إلا بما يصح لهم من ذلك عند الميزان ، وهو المحنة ، محنة نفسك[3] .

(١) وأكثر الآفات وأخطرها الغفلة .

(٢) ويجمع الأصوليون على أن « لا جزاء إلا بالنية » . وعلى النية كل تعويل لشتى أمور الإنسان ونشاطاته .

(٣) محنة النفس : بابتلائها ، وفتنتها .

ومن الناس من يرى أنه يكره المحمدة والثناء اشفاقاً على عمله ، وخوفاً من فتنته ؛ و(يجب على هذا)[1] ألا يعبأ بما يخيل اليه من ذلك ويظن ، لأن كثرة ما يظن الناس من ذلك ليس كما يظنون[2] ، حتى ينظروا الى تحقيق صدقه عند البيان ، فليراجع (العبد)[3] . نفسه إذا اثني عليه أو مدح ، أو ذموه ونسبوه الى ما يكره ، فإن كان ما أعجبه من الثناء والمدحه إنماأعجبه لمعنى ما قلنا من الستر ، والرجاء في الثناء الحسن والقول الجميل ، لمثل قوله تعالى : ﴿ والقيت عليك محبة مني ﴾[4] . ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾[5] قال : الثناء . وقال : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾[6] . وقال : الثناء الحسن . وقوله : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾[7] . قال : الثناء الحسن .

وقال النبي ﷺ في الرجل يعمل العمل يريد به الله ، فيحمده عليه الناس ، ويثنون عليه به فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن »[8] . وقوله ﷺ في العبد إذا أحبه الله : « لم يخرجه من الدنيا حتى يملأ مسامعه مما يحب »[9] . وقوله : « انتم شهداء الله في الأرض »[10] . واشباه ذلك في الكتاب والسنة .

فإن كان سروره بما ذكر به من الخير شكراً لستر الله عليه ، وحمداً منه لله اذا جعله الله عز وجل ممن يذكر بعلامة الخير ، فليس ذلك بسرور فاسد ، ولكنه شكر وطلب مزيد . وعلامة سلامة نيته في ذلك : ان يزداد لله تواضعاً ، ولآلائه شكراً ، وفي طاعته اجتهاداً ، ومع ذلك ينبغي أن يرد نفسه

---

(١) يجب على هذا ساقطة من (ب)

(٢) ليس كما يظن ساقطة من (أ)

(٣) العبد ساقطة من (أ)

(٤) طه (٢٠/٣٩)

(٥) العنكبوت (٢٩/٣٧) .

(٦) النحل (١٦/١٢٢)

(٧) الشعراء (٢٦/٨٤)

(٨) أخرجه أحمد وأبوداود عن أبي هريرة .

(٩) أخرجه الطبراني والبزاز عن سعد بن أبي وقاص .

(١٠) الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الى طريق المخافة من الاستدراج ، ويكون ما خفي من عمله أحب اليه مما ظهر ، مخافة ما يلحق أهل الصلاح من الفتنة في ما يستمعون من المدحة والثناء . ولما جاء من النهي والكراهة للتزكية والمدحة أن يسمع الرجل صاحبه . . . وذلك مثل قوله ﷺ : « من مدح أخاه في وجهه فكأنما أمر على حلقه موسى رميضاً »[1] . ومثل قوله عليه السلام : « لو سمعك ما أفلح »[2] . ومثل قوله ﷺ : « عقرت الرجل عقرك الله »[3] . وهذا ونحوه كثير .

فاذا كان مذهبه ونيته : شكر الله على ستره ، وحمد الله على نعمته ، ويكون ما سبق من السرور الى قلبه في ثناء إذا سمعه رجاء القدوة به اذا كان ممن يصلح أن يقتدى به ، لقول الله عز وجل : ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾[4] . يقال : أئمة في الخير يقتدى بنا .

فإن [كان] كذلك رجوت ألا يضره ذلك ، ولا يفسد عليه عمله .

وقد ذكر عن مطرف[5] انه قال : « ما سمعت ثناء أو مدحة إلا تصاغرت الى نفسي » . وقال زياد بن أبي مسلم[6] . : « ليس أحد يسمع ثناء و مدحة إلا تراءى له شيطان ، ولكن المؤمن يراجع » . فقال ابن المبارك[7] : صدق كلاهما . أما ما ذكر زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكر مطرف فذلك قلب الخواص .

وان كان مذهبه ونيته إذا سمع ذلك وسر به : طلب الرفعة والمنزلة عند الناس ، فما أسوأ حاله في احباط عمله .

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده عن الزبير بن العوام .

(٢) أخرجه الشيخان .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر .

(٤) الفرقان (٢٥/٧٤)

(٥) راجع ترجمة مطرف بن عبد الله العامري البصري في تهذيب التهذيب (١/١٧٣) .

(٦) زياد بن أبي مسلم .

(٧) راجع تذكرة الحفاظ للذهبي (١/٢٧٤) .

وأما المرائي فهو الذي يكون مذهبه ونيته في أول عمله وآخره . طلب الثناء والمحمدة والرفعة والتكرمة عند الناس ، واحراز المنافع به ، فذلك الذي جاءه بالويل والثبور في الدنيا والآخرة .

فإن كان يعرف معرفة حق : أن ما أعجبه لهذا المعنى ، ولم يعجبه ذاك لما نال من الجاه عندهم ، فلا جناح عليه ، وعلامته : أن يزداد تواضعاً ، ويحدث خوفاً من الاستدراج ، وما يخفى من عمله فهو أحب اليه مما يظهره ، لأنه طمع في طريقة الصالحين ، فعلى قدر ذلك ينبغي أن يرغب في أعمالهم ، وما نالوا به اسم الصلاح ، وصاروا من أهله ، مع ما يلزمه من الخوف والفتنة مما يلزم أهل الثناء والمحمدة اذا اثني عليهم أو مدحوا ، مثل قوله عليه السلام : « عقرت الرجل » . ومثل قوله : « لو سمعك ما أفلح » . وقوله : « قطعت عنق أخيك »[1] وقوله : « إياكم والمدح فإنه الذبح » . وقوله : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب »[2] . وقوله : « لو مشى رجل الى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه »[3] . ومثل هذا كثير .

وعلامة أصحاب الجاه في الدنيا ، وأصحاب الرياء المحبين لذلك : أنهم اذا سمعوا الثناء والمحمدة أحبوا ذلك ، وازدادوا غرة واعجاباً بأنفسهم ، وغفلة عن الاستدراج ، وتمادوا وتمنوا وطمعوا أن ما ظهر عليهم من أعمالهم كان أحب اليهم مما خفي ، ولم يخافوا من فتنته ولا من آفته .

وكذلك إذا كره المذمة إنما كرهها لأنه أحب أن يكون مكانها مدحة وثناء ، لينال بذلك الجاه والقدر والمنزلة والرفعة عند الناس ، فهي كراهية سقيمة مذمومة ، وصاحبها مغرور مخدوع .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) رواه مسلم وأحمد وأبو داود . راجع كشف الخفا للعجلوني (١/ ٥٧) ط . دار التراث .

(٣) رواه ابو داود والترمذي عن سمرة بن جندب .

وان كان إنما هي حب منه لستر الله عليه ، وكراهية هتك الستر عنه ، لأنه لم يمقته الناس حتى جاءه المقت من عند الله قبل مقت الناس ، فإن كانت الكراهية انما هي من هذه الجهة ، فإن هذا يكرهه الصادق وغير الصادق ، فلا يلام عليه .

وعلامته : التضرع والاستكانة والمراجعة والنظر في التخلص الى طريق محبة الله تعالى ، وسبيل الاستقامة ، ومحجة الإيمان ، والجد فيه .

وأبين[1] من ذلك : انه كل من زعم أنه يريد بعمله وجه الله ، لا يريد من أحد على عمل يعمله من أعمال الصالحات جزاء ولا شكوراً ، ثم عرفه الناس بعمله ، وذكر وصار معروفاً عندهم ، ونال منهم الرفعة ، فإن كان يعرف من نفسه انه إذا عرض عليها أن يتحول اسمه وما نال بعمله من الناس من الثناء والمحمدة الى غيره ، ويبقى هو عند الناس كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر ، ذكر ولا غيره ، فكان هذا أحب اليه ، فأمره مرجو .

وإن كره أن يتحول ذكره الذي كان عليه الى غيره ، ويبقى هو كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر ، فدعواه حينئذٍ باطلة ، لأن الذي يقول : انه يريده بعمله ولا يريد غيره ، فإذا تحول ذكره الى غيره لم يحول الذي عمل له العمل ثوابه الى غيره ، ولم ينقصه من ثوابه شيئاً ، ولعله أن يكون أكثر له عنده ، وأقرب مثوى . والذي كان يزعم أنه لا يريدهم به كره أن يزول عنه الاسم الذي ثبتت له عندهم به المنزلة ، وكره أن يبقى عند من زعم أنه لا يريدهم بلا ذكر عمل يعرفونه به .

ومثل هذا ينظر ، إن كانت له خصلة عند الناس من خصال البر ، فنسبوه إليها ، ويظنون أنه صاحبها ، غلطاً منهم بها وجهالة ، فكره أن يعرفوا ذلك أو يطلعوا عليه ، وأنه ليس ممن يعمل بتلك الخصلة ، أو له عمل من البر ، وعند الناس أن ما يعمل هو من البر أكثر ، فيكره أن يطلع الناس

(١) أبين من ذلك : أوضح منه وأظهر .

عليه ، فلا يعبأ بمحبة نفسه عند الذي يعمل من أعمال البر ، فإنه ممن يحب أن يحمد بما لم يفعل ، ولا يحب أن يحمد بما قد فعل حتى يحبهما جميعاً .

كذلك ان صحب رجلاً معروفاً بالصلاح والعبادة عند الناس ، أو له سبب قد نال به ذكراً[1] من غيره ، فكره أن يسقط ذلك عند الناس ولم يعبأ[2] بمحبة نفسه عندما يعمل من أعمال البر ، [فانه ممن يحب أن يحمد بانتسابه الى غيره] ، فإنه لا يمكن أن يحب الذكر بعمل غيره ، ولا يحب ان يذكر بعمل نفسه الذي يعمل هو حتى يحبهما جميعاً[3] .

فإن وجد نفسه في هذه المواضع صادقة على ما يجب عليها فيه الصدق ، فأرجو أن يكون من أهل الصدق ان شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) قد نال بذلك ذكراً (الأصل) وما أوردناه أصح .

(٢) فلا يعبأ (الأصل) وما أوردناه أبين .

(٣) أي يحب الذكر بعمله وبعمل غيره .

اليقين والعز

وأما اليقين فعند العمل ، والصدق فيه : مشاهدة الثواب والعقاب ، فليس يكون بكثرة النفقة ، ولا بكثرة الكلام ، ولا يحتاج فيه الى تحريك الشفتين ، ولكن بالإيمان وبالعقل ، وبالمعرفة ، وحسن التدبير في ظاهر أمر العبد وباطنه ، فتعرف الصدق ، وتعرف ضده من الكذب ، وتعرف الخير ، وتعرف ضده من الشر ، فتعمل في اثبات الصدق ونفي ضده ، وتعلم الأصل من الفرع ، فيكون الشغل في اثبات الصدق من وجه الأصل ، وانتفاء ضده من وجه الأصل ، فإن الأصل يأتي على الفروع .

وما دام العبد يشتغل بالفرع عن الأصل[1] ، فليس لشغله فناء ما دام الأصل ثابتاً ، كلما ذهب فرع أخلف بدله آخر[2] .

وحب **العز أصل** ، ومنه مخرج حب الرئاسة والجاه عند الناس ، ومنه الكبر والفخر ، ومنه الغضب والحسد ، ومنه الحقد والحمية والعصبية . والنفس عاشقة له ، وهو قرة عينها ، وهو أحب اليها من أم واحد لواحدها . وبلغني إنه آخر ما يبقى في قلوب تاركي الدنيا للآخرة ، وذلك لصعوبة تمكنه من النفس .

فالعمل الصالح من غير المريد المستحكم[3] من أهل القراءة[4] ، سلاحه الذي يقوى به سلطانه هو العز في النفس ، والفخر بالعمل ،

(١) وما دام العبد يشتغل بالأصل عن الفرع (الأصل) وما أوردناه يقتضيه السياق .

(٢) أي فرعاً آخر .

(٣) المستحكم : المتثبت بالأمر .

(٤) القصد أهل القراءة من غير المتفقهين .

والازراء على الناس . وقد رأينا من يعمل أعمال الصالحين من الصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد وعزة في نفسه زائد . نعم ، وقد رأينا من يتواضع لطمع زيادة في العز ، ولا أعلم أني رأيت أحداً من أهل النسك خالياً منه ، يعني من العز ، فإن كان يجد بقاء حلاوة طعمه معه ، فلا يفلح معه عابد ولا زاهد ، وكيف يكون زاهداً والزهد لا يأوي معه في مأوى واحد .

فمن عالج نفي العز من نفسه ، ووفقه الله لذلك ، فنال نفيه ، سهل عليه المسير في طريق محبة الله عز وجل ، ومحجة الإيمان ، وسبيل الاستقامة ، ومدارج الصالحين وهانت عليه معالجة الصدق في عمله ، واطمأنت نفسه الى التذلل والتواضع ، وطاب له طريق العدل ، لأنه لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه وفيه العز ، ولا يقدر على كظمه الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على قبول الحق وفيه العز ، ولا يقدر على التواضع الذي هو شرف التقوى وحليتها[1] وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ، ولا يقدر على ترك العصبية وفيه العز ، ولا يقدر على سلامة القلب وفيه العز ، ولا يقدر على النصح وفيه العز ، ولا يسلم من الازراء على الناس وفيه العز .

فما اكثر ضرره ، واعظم فساده ، وأظهر أمره ، وأقل رشده ، وأبين غيه عند الخاص والعام وما أغفل الناس عنه ، وأقل معرفتهم به ، وأشد متابعتهم له .

فالهوى حكمه ، والكبر أخوه وعضده ، والجور سيرته ، والغضب سلطانه ، والرياء عون من أعوانه ، له يكسب ، واليه يؤدي ، والعجب أضعف عون له ، والحسد أمير جنوده ، والغل صاحب مشورته . وقال رسول الله ﷺ : « الكبر والحسد يأكلان الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال بعضهم : «الغل والحسد »[2] .

---

(١) وحليته (الأصل) .

(٢) الغل الحقد والسخيمة .

والعز في الخلق عام ، في العبيد والاماء ، والفقـراء والأغنياء ، والضعفـاء والأقـوياء ، والقـراء والعلماء ، وكل واحـد منهم يظهـر منه عـلى قـدر مـا يمكنـه إظهاره ، ومن لم يمكنه الاظهار عامـل الناس بـه سراً في نفسـه ، لأنه مـا دام في الانسان لا يترك حظه منه سراً ولا علانيـة . أما تـراه كيف يتغيظ في نفسه عـلى غيـره ، وكيف يحسد ، ويـدور حولـه يطلب عـوراته ، وكيف يحكم فيـه بحكم الهـوى ، ولو ملك من ذلـك في الظاهـر ما ملك في البـاطن لأظهـر مثـل الـذي أضمر من ذلك في الباطن .

وأقبح أمره ، وأفسده له ، وأشـده فضيحة ، اذا كـان في القارىء لأنـه لا يكـاد يتعزز عـلى غيره بسبب من الأسبـاب إلا بأسبـاب الدين ، وإلا رأيت فيـه أثر ذلك[1]

فسبحـان الله مـاذا يلقى القراء خاصة من العز ومن أعوانـه ، يـدلـك عـلى ذلـك سرعـة حقدهم ، وكثـرة غضبهـم لأنفسهم من طريق الاعـزاز لهـا ، ومـا يجدون[2] على النـاس فيه ممـا لا خطر لـه ، وذلك كله من داء العـز وحركتـه امر لم يجز لأهل الجنة[3] ولا للملائكة ، ولا للنبيـين ، يريـد القارىء أن يجـوزه لنفسه ، وأن يجعله فوق رأسه .

وانمـا كان ينبغي للصـادق في قراءتـه العمـل في اطفـاء العـز من قلبـه من أول أمره ، وأن يجعله تحت قدميـه ، ولو أن رجـلاً صلى الغـداة ، ثم أقبل عـلى نفسه ، وأصلح خصلة من خصال العـز ، ليس العز كله ، وآخـر تصدق بـوزن نفسه ذهباً على أكباد جـائعة ، من وجـه طيب ، لكان الأول أغبط[4] ، وكـانت النعمة عليه أكبر ، والشكر عليه أكثر عند أهل المعرفة والعلم .

---

(١) والصالحون هم أشد الناس جزعاً من ربهم وفزعاً وهم كـذلك أشفق النـاس على أنفسهم عـلى ما هم عليه من التزام بمنهج الله وطاعته .

(٢) ما يجدون : ما يضمرون من موجدة وغيظ وضغينة .

(٣) لقوله تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ [الحجر - ١٥ /٤٧]

(٤) أي أفرح وأعظم .

فكيف اذا اصبح وهو لم يكن له همة إلا العناية بالعز لنفسه ، لتجربته له ، ومعرفته به .

وآخر أصبح ولم تكن همته ولا محبته إلا العناية بنفي العز من قلبه ، ولزوم التواضع ، وذل النفس ، لتجربته لنور التواضع ، ومعرفته بفوائده ، فهنيئاً لمن شغله مثل شغله ، ما أنفعه من شغل ، وأرضاه عند مليكه ، وأروحه للقلب .

فاعتبر برجلين أمرا بالعبودية ، وأحدهما أحب أن يجعل نفسه عبداً كما أمر ، وأحب الآخر أن يجعل نفسه ملكاً ، أي هذين أولى بالجائزة من المولى ، وأيهما يستأهل العقوبة الموجعة ؟

قلت : قد وصفت من فساد العز وضرره وشره ما قد وصفت ، فصف لي طريق التحرز والامتناع منه ، فإن المريض إذا عرف داءه أحب أن يعرف دواءه ، وهكذا من أحب أن يعرف عيب نفسه ، يجب أن يعرف الذي يصلح به عيبه .

فقال : ان ابن آدم تكلف نزول الطير من جو السماء فأنزله ، وتكلف خروج الحوت من قعر البحر[1] فأخرجه ، وتكلف إخراج الذهب والفضة من بطن الأرض فأخرجها ، وتكلف أخذ الدواب والأنعام والوحوش والسباع من البراري والغياض[2] . فأخذها وذللها وسخرها ، وتكلف أخذ الأفاعي والحيات فأخذها ، وتكلف معالجة الشياطين فعالجها ، وتكلف معرفة النجوم في السماء وأسماءها ، ومجاريها ومطالعها ومغاربها ، وتكلف منازل الشمس والقمر ومجاريهما ومطالعهما ومغاربهما ، وتكلف معرفة الولد اذا لم يكن من أبيه ، فعرف ذلك كله لما تكلفه.وتكلف معرفة مرض المريض وأسباب علله، بالنظر الى بوله من غير أن ينظر اليه ، فعرف داءه وعرف دواءه ، فعرف كل ذلك .

---

(١) البحار (الأصل) .

(٢) الغياض : الخمائل ، وهي الأشجار الكثيرة الملتفة .

وتكلف تعلم سير الملوك الماضية من القرون الأولى ، فكتبها ودرسها .

وكل ما تكلف من ذلك فإنما حمل نفسه على تكلفه لطلب الزيادة من الدنيا ، وليس في هذا من أمر دينه الذي كلفه شيء ، وكلف تقويم نفس واحدة فلم يقم بتقويمها ، وليس عليه من فساد غيرها شيء ، لم يكلف إلا اصلاح فساد نفسه وحدها ، فلم يقم باصلاح فسادها ، فجهل بعض الصلاح وعلم بعضاً ، فما جهل فهو جاهل به ، ولا يتكلف علمه ، وما علمه من فسادها فهو مضيع لاصلاحه ، ولم يكلف أحد أن يصوم ولا يصلي ولا يزكي ولا يحج ولا يتوضأ ولا يغتسل عن أحد ، انما كلف نفسه ، ليس لأحد من صلاح أحد شيئاً ، وإنما صلاح كل امرىء وتقواه لنفسه ، وفي ميزانه ، ليس في ميزان غيره من شيء .

وهكذا النية في الأعمال ، لا تنفع نيتي عملك ، ولا تنفع نيتك عملي اذا كانت صحيحة ، ولا تضره إذا كانت سقيمة ، وانما المنفعة والمضرة على صاحب النية ، وصاحب العمل ، وانما هي نفس واحدة ، فإذا صار الى أمر نفسه[1] لم يعرف خيرها من شرها ، ولا إقبالها من ادبارها ، يعمل الخير فلا يدري مقبل هو فيه أم مدبر إلا بظاهر العمل والدعوى ، ولا يدري أي شيء يعمله للدنيا أو للآخرة ، ليس يميز بين الأمرين ، ولا يفاتش الهمة فيه ، والمحبة له ، ولا الخشية فيه ، ولا يتوقف ، ولا يحسن أن يطالع ضميره ، فهو يفسد الخير بالشر ، ولا يشعر ، هو في ظاهره مقبل ، وهو في باطنه مدبر ، هو في ظاهره آبق الى الله ، وهو في باطنه آبق من الله .

فسبحان الله ، ماذا تكلف المسكين من معرفة ما لم يكلف ، فشغل عنايته فيه ، وشغل فهمه به ، وأما الذي جهل فضيع من معرفته [فهو] ما قد كلف ، وأخذ عليه فيه المواثيق .

يدخل عليه الشر والفساد فلا يدري من أين دخل ، وأنى أتاه ، وكيف

(١) إلى أمر نفسيته (الأصل) .

هو ، وما السبيل الى التخلص منه ، فيبقى عند ذلك تائهاً حيراناً ، وقد عالج ما في الهواء ، وما في البحار ، فعرفه لما شغل عنايته به لمعنى دنياه الذي قد تكفل الله له منها بما قدر له ، وضمن له الوفاء بها ، أقبل عليها أو أدبر عنها ، فغلب هو المسكين الخلق ، وغلبته نفسه ، ولو عني بمعرفة فساد نفسه وصلاحها ، وخيرها وشرها ، وخاف التلف عليها ، كما عني بمعرفة ما ذكرنا من أمر دنياه المضمونة له ، لعرف من فسادها وصلاحها ما عرف من ذلك ، وقدر منه على ما قدر من ذلك ، ولكنه رضي أن يسلك طريق الدين بالجهالة ، ولم يرض أن يسلك طريق الدنيا إلا بعلم وبصيرة .

ومتى شئت رأيته في طريق الدنيا ، وهو يحسب أنه في طريق الآخرة ، ومع ذلك فإن بعض المدبرين[1] عن الله تعالى ، المعرضين عنه ، قد تسموا علماء ، ونصبوا أنفسهم للدلالة على الله ، وهم حيارى متصنعة ، مدخولون متشبهة ، يحسبهم الجاهل أدلاء ، وهم عمي حيارى ، فإنا لله وإنا اليه راجعون .

واعلم ان العز والتعزز ليس بغائب قادم عليك ، فتريد التحرز منه ، والامتناع عليه ، ولكنه شيء قد حل ونزل وتمكن من المنزل ، واستوى وجلس في صدر المجلس ، وأخذ منك أخيرك ، وغلب أخير موضع فيك ، واتكأ على متكئه ، واستخدم أعوانه بما يوافق هواه في إقبالهم وإدبارهم[2] .

وإن لم تكن تراه فبه غذيت ، وبه تربيت ، وعليه نشأت ، وإياه تعودت ، وإنما تريد مفارقة غذائك وعادتك ، فكما أنه داء له أصل وفروع ، فكذلك دواؤ ه له أصل وفروع .

ولا أكثر عليك من صفات فروع دوائه فتمل وتعرض[3] ، ولكن أدلك

---

(١) المدبرين عن الله تعالى : المنصرفين عن منهجه وطريقه .

(٢) يقصد بذلك القلب .

(٣) تعرض : تنصرف .

على الأصل الذي إذا عالجته اتى على الأغصان كلها ، وهـو : الأياس من جميـع المخلوقين ان يكونوا يضروا أو ينفعوا، أو يعطوا أو يمنعـوا ، أو يحيوا أو يميتـوا ، فالزمه قلبك ، فإنه أصل الأصول ، ورأس الأمر وسنامه .

فـإن كنت مـريـداً صـادقـاً تحب النـظر في عـواقب الأمـور ، فـأغلق عن نفسك باب الطمع ، وافتـح لها بـاب الاياس ، وانفـرد لذلـك بارادتـك كلها ، وتجـرد في طلبه ، كـالذي ليس لـه من حوائـج الدنيـا كلها إلا حـاجة واحـدة ، وتعـزم عزمـاً صحيحاً عـلى أن تهب نفسـك لله في بقيـة عمـرك ، إن كنت تـراه لذلك أهـلاً ، سبحانـه وتعالى ، مـا أغناه عن أهـل السموات وأهل الأرضين ، وما أشد اضطرارهم اليه[1] .

فاجعل يا أخي نفسك كهيئة الأسير في أيدي أهل زمـانك أيـام حياتـك ، في اتباع مرضاة الله عز وجـل ، والتخلص من بلية العـز ، فإن الأسـير مملوك لا يملك ، ولا يـطمع أن يـظلم أحداً ، ولا ينصـر من ظالم ، ثم تجـد حلاوة طعم ذكـر الله ، ولذاذة المنـاجاة في عبـادة الله . . . وإنما قلت لـك : استخراج العـز وقـطعه عن قلبـك باليـأس من الناس ، لأنـه يردك الى الله ، ورجـوعك إلى الله سكـون قلبك عليـه ، وفي سكون قلبـك عليه الازديـاد من طاعتـه ، والوصـول الى خـاصية عبـادته ، وفي الـوصـول الى خـاصيـة عبـادتـه النـزول عنـد درجـة العبيـد ، وفي النزول عنـد درجة العبيـد اصابـة شرف العبـوديـة ، وفي اصـابـة شرف العبوديـة اكتساب القلب المـذلة ، المنـاقض للعدم أمـر يصدق عـلى جميع المـوجودات ، وحقيقـة الحق سبحانـه وتعالى لا تـوجد في شيء سـواه ، فـالعلم بكونه موجوداً ليس علماً بحقيقة المخصوصيـة . وأما علمنـا بكونـه ليس جوهـراً ولا عرضاً ولا جسـماً فهذا علم بعـدم هذه الأشيـاء ، وليس علماً بحقيقته ، لأن حقيقتـه ثابتـة متحققـة ، والسلب لا يكـون نفس الثبـوت ، فثبت بمجمـوع مـا ذكرنا أنه لا سبيل للعقول الى معرفة حقيقة الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أي ما أشد حاجتهم الملحة إليه .

ومما يحقق ما ذكرنا ان العقلاء اتفقوا على ان كل صفة شاهدها الحس ، وأدركها العقل في المكونات ، فلو وصف أحد بها الحق صار جاهلاً ، فاذن لا طريق له إلى معرفة الحق إلا بنفي كل ما عرفه ، ولهذا اتفقوا على أن احسن كلمة قيلت في التوحيد ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي : أن تعرف أن كل ما يتصور في ذهنك فالله سبحانه بخلافه .

ثم قال المحققون[1] : لما كان كل ما تتصور في ذهنك فالله بخلافه ، فلو تصور في ذهنك من ذلك الخلاف شيء فالله تعالى بخلافه ، ثم لو تصور في هذه المرتبة الثانية أمر آخر لزم نفيه ، فلم يبق للعقل في طريق معرفة الله سبيل إلا أن ينفي كل ما يقع في خاطره ، ثم اذا وقع من هذا النفي شيء اشتغل بنفيه أيضاً ، وهكذا في النفي الثالث ، والنفي الرابع الى ما لا نهاية . فلو نفى أبد الآبدين ودهر الداهرين لكان مشغولاً بهذا النفي ، واذا كان الأمر كذلك بقي الحق منزهاً لواحق الفكر ، واشارات العقل ، وعلائق الضمير .

* * *

الحجة الثانية

وهي ان الانسان عاجز عن معرفة نفسه . فإن قيل : ان نفسه هي هذا الهيكل المشاهد فهو باطل من وجهين : الأول ان الانسان قد يعرف ذاته حال ما يكون غافلاً عن جميع اعضائه الظاهرة والباطنة ، والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم ، والثاني ان ذاته من أول عمره الى آخره شيء واحد ، واجزاء بدنه من أول عمره إلى آخر عمره غير باقٍ ، والباقي مغاير لغير الباقي . فثبت أن الانسان ليس عبارة عن هذا الهيكل المحسوس .

ثم بعد هذا يحتمل أن يقال : انه جسم في داخل الهيكل ، اما في

---

(١) يقصد بالمحققين من قالوا بالحقيقة من الصوفية وفصلوها عن الشريعة .

القلب فقط ، واما في الدماغ فقط ، أو يكون مساوياً في كل البدن ، ثم ذلك الجسم أهو من جنس الاجسام التي تولد البدن عنها ، أو هو جسم مخالف لهذه الأجسام في الماهية والحقيقة . ويحتمل أيضاً أن يقال : انه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز ، بل هو مدبر لهذا البدن على ما يقوله الفلاسفة .

واعلم ان هذه الاحتمالات بقيت من الزمان الأقدم الى الآن ، وبعد ما زالت الشكوك والشبهات ، ولا شك ان اعرف المعارف في الشيء المشار اليه بقولي : أنا . فاذا كان هذا حالي في معرفة اظهر الأشياء ، فكيف يكون حالي في معرفة أبعد الأشياء مناسبة عن علائق العقول وروابط الخيالات .

وتحقيق الكلام فيه : ان العقل كالشمع ، ولا شك ان كل ما كان أقرب الى الشمع كان ضره أكثر مما بعد عنه ، وأقرب الأشياء الى الشخص نفسه . فاذا كان نور العقل أضعف من أن يبصر ذاته فكيف يدرك حضرة الجلال مع بعده عنها بغير نهاية .

واعلم انه كما وقعت الشبهات المذكورة في معرفة النفس فقد وقعت أيضاً في معرفة حقيقة الزمان وحقيقة المكان ، وتحير الخلق ان القوة الباصرة كيف تبصر بحصول الشبح أو بخروج الشعاع ، وكذلك البحث عن القوة السامعة والقوة الذائقة ، وتحيروا أيضاً في البحث عن كيفية التخيلات ، فإن هذه الصور المتخيلة ان لم يكن لها وجود أصلاً فكيف يكون حصول التمييز والتعيين فيها . وإن كان لها وجود فهي قائمة بأنفسها ، أو كلها شيء مجرد ، أو محلها جسم ، والكل محال ممتنع .

ولما كانت معرفة الخلق بهذه الأمور الظاهرة الجلية بلغت حداً من الصعوبة الى هذا الحد فما ظنك بمعرفتهم بمن تقدس عن مناسبات العقول والأفكار ، وتنزه عن مشابهات الخيالات والأنظار .

الحجة الثالثة :

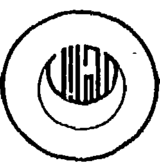
العقل لا يتصرف إلا فيما يكون في زمان أو مكان ، لأن كل ما أدركه

فإنه يدركه في الماضي أو في المستقبل أو في الحال ، وكل ذلك تحت الزمان ، وكل ما يتصور فإنه إنما يتصوره اما ههنا أو هناك ، وكل ذلك بحسب المكان . وإذا قلت ان الله سبحانه بخلاف هذه الأشياء فمعرفته هذه المعرفة ليس إلا نفي ما عرفته وتصورته .

فالحاصل فيه نفي غير الحق ، ونفي غير الحق لا يكون هو عين وجدان الحق .

فهرس محتويات الكتاب

الموضوع — الصفحة



صدر عن

دار ومكتبة الهلال

الإعجاز الطبي في القرآن

تأليف

الدكتور السيد الجميلي

